

ساحة الحياة



ساحة الحياة

Copyright©2015 Dar al-Nile

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بآية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

يوكسل جليتر

مراجعة

خالد جمال عبد الناصر

تصحيح

سليمان أحمد شيخ سليمان

المخرج الفني

أنكين جينجي

غلاف

نوردوغان شكماشي

تصميم

ياووز يلماز - أحمد شحاتة

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-6183-26-1

رقم النشر: 1008

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 ج - جنوب الأكاديمية - التسعين الشمالي - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 002 01000780841

E-mail: info@daralnil.com

www.daralnil.com

القاهرة - 2015م

ساحة الحياة

تأليف

عثمان نمر

ترجمة

محمود نبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس

١	السلطان المتواضع وبلاده العظيمة
٣	السلطان شرف الدين يفكر في السفر
٧	السفر إلى المملكة الخضراء
١٢	هدايا السلطان علاء الدين
٢٢	اللقاء الأول مع شوق
٢٦	هجوم اليأس
٣١	الغرق في الرمال
٣٥	نُسور الصحراء
٣٨	خندق الصبر
٤٤	تيار النهر الجارف
٥١	عندما تتخلى عن المجاديف
٥٥	ليلة في القلعة

٦٠	نحو نهاية الطريق.....
٦٦	ساحة الحياة.....
٧٢	عودة السُّلطان إلى بلاده.....
٧٦	الحلم الذي جاء بالحلّ.....
٨٢	عصر الراحة.....
٩٢	ليس للإنسان إلا ما سعى.....



السلطان المتواضع وبلاده العظيمة

عاش في إحدى البلاد قبل سنواتٍ طويلةٍ مضت قومٌ جلُّهم من الأغنياء وليس فيهم من الفقراء إلا القليل، وقد بُنيت في هذه البلاد أجمل المساجد، وافتُتِحَ فيها العديد من المعاهد الدينية، وكانت الطرق والجسور والنزلات والحمامات وافرةً يعجزُ المرء عن إحصائها، تجري فيها أحدثُ تطورات العصر وأكثر اختراعاته، وتتناقل الألسنة أخبار تلك التطورات والاكتشافات بشغفٍ وانبهار.

كان الأهالي يقدِّمون الطعام للحيوانات البرية في غابات تلك البلاد العديدة حتى تتخطى أيام الشتاء القارس، أما الجداول التي ترتادها الطيور المهاجرة فلم يعد يقربها الناس حتى لا تجفل وتُغادرها.

يطلق على هذه البلاد اسم "المملكة الخضراء"، وأجمل ما فيها هو التضامن فيما بين الناس، فأنت ترى الأغنياء يُساندون الفقراء، ويدفعون الزكاة والصدقات دون انقطاع.

تُجرى كافة الأعمال في القرى بأسلوب العمل الجماعي، ولذلك يتم إنجاز واستكمال الأعمال لكل الناس دون أي استثناء، كما كان الجميع يُشاركون في التعازي والأعراس دونما أي تمييز بين فقير وغني، وقد كانت الدول الأخرى تحسّد تلك المملكة، وفي مُقدّماتها الدول المجاورة.

قاد هذه البلاد سلطانٌ متواضعٌ يُدعى علاء الدين، وهو في أواخر العقد الثالث من عُمره، كان شخصًا لا يَكل ولا يملُ من العمل، دائم التَّخطيط لما سَيَفْعَل، سواء في الليل أو النهار، يَسْتَشِيرُ أهل المعرفة قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ أيَّ قَرَار، كثير التفكير والعمل، قليل الكلام، اكتسب محبة شعبه بوقاره وبعزته وحكمته، ودوره الكبير جدًّا في تطور مملكته.

كانت جميع البلاد تتابع أوضاع المملكة الخضراء بإعجاب شديد، ومن بين هذه البلاد: "المملكة الزرقاء" وهي الدولة الأقرب للمملكة الخضراء، وكان شرف الدين سلطان المملكة الزرقاء الذي يناهز عمره الثلاثين عامًا، شابًا وإنسانًا طيب القلب، ولكنه وعلى الرغم من ذلك، أمضى أغلب وقته حزينًا قلقًا.



السلطان شرف الدين يفكر في السفر

كانت المملكة الزرقاء التي يحكمها السلطان شرف الدين مملكة فقيرة جدًا، رَغِمَ أَنَّهَا كانت تمتلك أراضي شاسعةً وخصبةً وعددًا كبيرًا من السكان، ولكنَّ سُكَّانَهَا كانوا كُسَالَى بُلْدَاءَ، حَتَّى إِنَّ سُكَّانَ الدُّولِ الأُخْرَى الَّذِينَ يَأْتُونَ لزيارتِهِمْ كانوا يشعرونَ بِالخُمُولِ والنُّعَاسِ عِنْدَ رُؤْيَتِهِمْ على هَذِهِ الحَالِ، وَكَانَ القِسْمُ الأَعْظَمُ مِنَ الشَّعْبِ فَقِيرًا على الرُّغْمِ من وجودِ أغنياءَ كثيرينَ جدًا في هذه البلادِ، ولكنَّ الفقراءَ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنَ الزَّكَاةِ والصَّدَقَاتِ التي كان يقدِّمُهَا أغنيائُهُمْ، وَلَمْ يَكُنِ الأغنياءُ بدورِهِمْ يبدُلُونَ جُهْدًا في البَحْثِ عن المحتاجينَ، بَلْ رُبَّمَا أَهْمَلُوا في أَغْلَبِ الأوقاتِ تَقْدِيمَ الزَّكَاةِ والصَّدَقَاتِ، وَكَانَ السُّلْطَانُ شرف الدين كُلَّمَا فَكَّرَ بهذه الأمورِ أَصِيبَ بالأَرْقِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ إِعْدَادَ خُطَّةٍ لَوْضَعِ الأمورِ في نصابِها الصَّحِيحِ.

وفي حقيقة الأمر كان السلطان شرف الدين قد اجتمع عدة مرات مع مستشاريه ليتناقش معهم في شؤون البلاد، وتباحث معهم لأيام وليال طوال سبل تصحيح مسار البلاد، واتخذ قرارات عديدة في هذا الشأن، وكان الحماس الذي تجلبه هذه الاجتماعات يتسبب في بعض الحركة والتشاط، إلا أنه بعد فترة وجيزة تعود أيام الكسل إلى سابق عهدها، لأن سكان البلاد وفي مقدمتهم السلطان كانوا يستضعبون الامتثال إلى القرارات المتخذة؛ لأن الكسل كان قد أصبح طبعاً متأصلاً فيهم، وقد كان السلطان شرف الدين يبحث بشكل دائم عن سبل التخلص من هذا الوضع، إلا أنه لم يستطع أن يجد مخرجاً من هذا الحال.

وفي أحد الأيام خطرت بباله فكرة مغايرة لتلك الأفكار السابقة للتخلص من الوضع السيء السائد في بلاده، ففكر في نفسه قائلاً: "سأذهب إلى السلطان علاء الدين لأستشيرهُ في الأمر، فلربما استطعت إنقاذ بلادي إذا ما نفذت اقتراحاته، ولربما استطعت تنمية بلادي إذا ما أنجزت نفس الأعمال التي أنجزها هو"، وقرّر زيارة سلطان المملكة الخضراء.

ودونما أي تأخير عرض فكرته هذه على الشخصيات المهمة في البلاد وعلى أصدقائه المقربين، وسألهم قائلاً:

- أَيُّهَا السَّادَةُ!! تَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَعْمَارَ قَصِيرَةٌ جَدًّا وَأَنَّ هُنَاكَ
الكثيرَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَجِبُ الْقِيَامُ بِهَا، وَتَعْلَمُونَ جَمِيعًا أَحْوَالَ
بِلَادِنَا، مَا رَأَيْكُمْ أَنَّ أَزُورَ السُّلْطَانَ عِلَاءَ الدِّينِ، وَأَسْتَشِيرُهُ فِي أَمْرِ
إِنْقَاذِ بِلَادِنَا مِنْ هَذَا الْوَضْعِ السَّيِّئِ الَّذِي نُعَانِي مِنْهُ؟
وحالما انتهى السلطانُ مِنْ تَوْجِيهِ سُؤَالِهِ بِدَأَ الْمُجْتَمِعُونَ
يَتَهَامِسُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ قَاتِلِينَ: ”سَنُخَوِّضُ مُغَامَرَةً نَحْنُ فِي غِنَى
عَنْهَا، إِنَّا نَعِيشُ حَيَاتِنَا كَمَا اعْتَدْنَا، وَلَا دَاعِيَ لَأَنْ نَقُومَ بِذَلِكَ، فَلَا
تَوْجُدُ قَاعِدَةٌ فِي الْعَالَمِ تَقْضِي بِأَنْ تَكُونَ كُلُّ الْبِلَادِ غَنِيَّةً“، وَلَكِنَّهُمْ
قَالُوا لِلْسلْطَانِ مَا يَلِي -ظَنَّا مِنْهُمْ أَنَّ مَا سَيَقُولُونَهُ سَيُنَالُ إِعْجَابَ
السلطان-:

- إِنَّهَا فِكْرَةٌ رَائِعَةٌ! طَبْعًا يَجِبُ عَلَيْنَا الْقِيَامُ بِكُلِّ مَا يَنْبَغِي
مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ التَّنْمِيَةِ فِي بِلَادِنَا، إِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الْمَمْلَكَةَ
الْخَضِرَاءَ مِنْ أَغْنَى بِلَادِ الْعَالَمِ وَهِيَ قَرِيبَةٌ جَدًّا مِنَّا، وَالذَّهَابُ إِلَى
السلطانِ عِلَاءَ الدِّينِ وَالْإِطْلَافُ عَلَى أَفْكَارِهِ رَأْيٌ صَائِبٌ وَسَدِيدٌ.
فَرَدَّ السُّلْطَانُ:

- أَنَا سَعِيدٌ لِأَنَّكُمْ تُشَاطِرُونَنِي الرَّأْيَ، حَسَنًا إِذَا، مَنْ مِنْكُمْ
يَرْغَبُ فِي الذَّهَابِ مَعِي؟

وما أنْ أنهى السُّلطان تَوْجِيهَ سُؤْالِهِ حتَّى تعالتِ الهَمساتُ
بينَ المُجتمَعينَ مرَّةً أُخرى.

لم يَكُنْ أيُّ منَ المُجتمَعينَ متحمِّسًا للذهابِ معَ السُّلطانِ،
وفي نِهايَةِ المَطافِ وافقَ كُلُّ منَ "سليم" الوزيرِ الأعظمِ لدى
السُّلطانِ شرف الدين وسليمانَ الصديقِ المقربِ من السُّلطانِ
على الذهابِ في هذه الرِّحلة.

ولم يَسْتَطِعِ السُّلطانُ شرف الدين والوزيرُ الأعظمُ وصديقُه
تَجهيزَ أنفُسِهِم والبَدْءَ في سَفَرِهِم إلى المملَكَةِ الخُضراءِ إلَّا بَعْدَ
مرورِ أسبوعٍ على اتِّخاذِ هذا القَرارِ، فالكسلُ والبِلادَةُ لَازِمَتُهُم
حتَّى في الوقتِ الذي كانوا سَيَسافرونَ فيه لِلبَحْثِ عن سَبيلٍ
لِلتَّخُلُّصِ مِنْهُما، وفي نِهايَةِ المَطافِ حانَ موعِدُ السَّفرِ، فأوَكَلَ
السُّلطانُ أمرَ إدارَةِ البلادِ للوزيرِ الثَّاني، وبدأتِ الرِّحلة.



السفر إلى المملكة الخضراء

بعد رحلة طويلة ظهرت حدود المملكة الخضراء من بعيد، فقرّر شرف الدين ومن صاحبه أن يستريحوا تحت شجرة دُلبٍ هزيلة واقعة على رأس تلة مطلة على عاصمة البلاد، فقصّوا ليلتهم هناك، وكانوا ينوون التوجّه إلى السلطان علاء الدين في صباح اليوم التالي وهم بكامل حيويّتهم، بدت العاصمة لهم في الليل منيرة ومتألّقة بسبب المشاعل التي كانت تُنير شوارعها، وقد كانت نظراتهم المليئة بالاعجاب ترنو إلى جمالها، كما أنّ حفيف أوراق شجرة الدُلب الذي يُثيره نسيم الليل العليل قد أدخل السكينة والطمأنينة إلى قلوبهم جميعاً، وبعد مدة قصيرة نام سليمان وسليم بالقرب من النار التي أدخلت الدّفء إلى قلوبهما، أما السلطان المهموم شرف الدين فتابع تأمله لعاصمة المملكة الخضراء بإعجاب لا نظير له، ودعا طويلاً وتوسّل كثيراً ليرزقه الله بلداً بنفس الجمال، وتمنّى من الله أن يمنحه القوة والعزيمة والحرص من أجل

النجاح في تحقيق هذه الرغبة، ثم استسلمت عيناه للنوم بعد مضي قليل من الوقت، فلحق بصاحبيه.

وفي الصباح التالي استكملوا استعداداتهم بعد الاستيقاظ مباشرة ثم تابعوا طريقهم، ورأوا في أطراف المدينة شوارع وأزقة منظمة ونظيفة، وكانت الشوارع مُزدانةً بالمشاعل، حيث كان كلُّ مشعلٍ مُخصصًا لإضاءة أربعة بيوت، وكانت نوافذ وشرفات كل البيوت تقريبًا مُكلَّلةً بورود وزهورٍ من شتى الألوان، وكان أهالي المدينة جميلي الهندام، بشوشي الوجوه، يمشون بخطى سريعة وثابتة لا يتخللها سوى السلام، عندما رأى السلطان شرف الدين هذه الأمور تذكَّر أفراد شعبه الذين يجوبون الطرق والشوارع بلا غاية ولا هدف، ويُضيِّعون وقتهم في الثرثرة أمام نزلات العمل، لم ير السلطان شرف الدين شخصًا واحدًا يُضيِّع وقته كما يفعل سكاُن بلده، لقد كان الصغار والشباب يتصرّفون باحترام بالغ تجاه المُسنِّين، وكانت مشاعر الحب تُظهر نفسها في كل تصرّف يتصرفه المُسنُّون تجاه هؤلاء الصغار والشباب.

وبعد أن توغلَّ شرف الدين وصحبه في المدينة سألوا أحد الباعة عن الطريق إلى القصر، فعرف البائع على الفور أنهم غرباء عن المدينة فقال لهم مبتسمًا:

- القصر؟

فأجابوه:

- نعم، نسأل عن قصر السلطان علاء الدين.

فأجاب البائع:

- السلطان علاء الدين ليس لديه قصر، إنه يعيش في بيت

مؤلّف من طابقين، وهناك مكانٌ يُسيّر منه أمور البلاد، أظنكم تسألون عن ذلك المكان.

فأجابه السلطان شرف الدين:

- نعم، نعم، إننا نسأل عن ذلك المكان الذي يُديرُ البلاد منه.

ولكنه عندما تذكّر فخامة قصره استحي قليلاً، واختلطت

الأفكار في ذهنه إلى حدّ كبير، فقال في نفسه: ”إنّ البلدان تُدارُ

من القصور، كيف يُمكن أن يكون بلدُ سلطانٍ ما جميلاً إلى هذا

الحد في الوقت الذي لا يملك فيه قصرًا واحدًا؟“

تابعوا طريقهم خلال المدينة كما أشار عليهم البائع، وكان

إعجابُهم بنظام المدينة وانتظامها يزداد مع كلّ خطوةٍ يخطونها

إلى الأمام، نُودي لصلاة الظهر في اللحظة التي وصلوا فيها

إلى بيت السلطان علاء الدين، حيث كان الهدوء يسود المكان؛

فقال سليم:

- إنَّ قصرنا أكبرُ بمائة مرةٍ على الأقل من هذا البيت.

فَرَدَّ عليه السلطان شرف الدين:

- صحيح، ولكن هذه المدينة أيضًا أكبر من عاصمتنا بمئة

مرةٍ على الأقل، أيها الوزير الأعظم!! أظن أن الموضوع لا يتعلق

بمدى كِبَرِ القصر، ما رأيك؟

طأطأ سليم رأسه بخجلٍ، وقال:

- معك حقُّ يا مولاي.

قام وزير السلطان علاء الدين الذي عَلِمَ بقدومهم، باستقبالهم

عند الباب وقال لهم:

- أهلاً وسهلاً بكم يا مولاي، أرجو أن تتفضّلوا إلى الداخل،

لقد قطعتم طريقًا طويلًا ولا شكَّ أنَّ التَّعب قد نالَ منكم، أرجوكم

تفضلوا.

أُعْجِبَ السلطان شرف الدين بحفاوة الاستقبال هذه، وقال:

- أهلاً وسهلاً بكم، لم يَكُنِ الأمر على هذه الدرجة من

العناء، أردنا زيارة السلطان علاء الدين للقاءه وتبادل الحديث معه

قليلاً إنَّ سَمَحَ وقته بذلك.

فأجابه الوزير:

- مولاي، إن سلطاننا الآن في الجامع يؤدي صلاة الظهر،
وقد كان ينتظركم، أرجوكم أن تستريحوا هنا حتى يأتي، ويشرفني
أن أقدم لكم شيئاً في هذه الأثناء.
وفي اللحظة التي كان وزير السلطان علاء الدين يُقدِّم فيها
بعض المشروبات لضيوفه دخل السلطان علاء الدين من الباب.



هدايا السلطان علاء الدين

استقبل السلطان علاء الدين ضيوفه باحترام وبِشاشة وجه، واضطجبتهم معه إلى غرفته، وجَّهَهُم إلى أماكن جلوسِهِم، وبَعَدَ أَنْ سَأَلَهُم عن أحوالِهِم، خاطبَهُم قائلاً:

- ما الذي أتى بكم إلى بلادي؟ كيف يمكنني مساعدتكم؟
بعد هذا السؤال بدأ السلطان شرف الدين يقصُّ عليه مأساته، فتحدَّث عن تخلفِ بلاده، وبساطةِ شَعْبِهِ، وزيادةِ نِسْبَةِ البَطالةِ، وزيادةِ أعدادِ الفقراءِ حتَّى بات إحصاؤها غيرَ ممكن، وبينما كان السلطان علاء الدين يستمع باهتمامٍ بالغٍ لكلِّ ما قاله، تابَعَ السلطان شرف الدين قائلاً:

- هذه هي حالنا يا سلطان علاء الدين، فما هو السبب الذي أوقعنا في هذه الحالِ برأيك؟ لقد أتينا إليك على أملٍ أَنْ تُقَدِّمَ لنا بعضاً من خبرتك، وتُدُلَّنَا إلى سبيلٍ يُخلصنا من هذه الأوضاعِ المُريرة، كما تعلم، لقد كان أبوانا أيضاً صديقين حميمين، وكانا على الدوام يستشيران بعضهما البعض.

دفع هذا الحديث السلطان علاء الدين إلى التفكير قليلاً،
ثم قال للسلطان شرف الدين:

- سأقدم لك كُل ما أستطيعُ من مساعدة، ولكن دعنا الآن
نتحدّث عن طُرُقِ الخَلاص من المصاعب التي تعانون منها،
فهناك بالتأكيد طريقة للخلاص من هذا الداء، كل ما سأقوله
لك هي أمور اتبعتها في حياتي واتخذتُ منها منهجاً أبعد عني
ما ذكرته من مصائب، وإنّ تتبع هذا المنهج أنت أيضاً فسيُعيدك
وأهلك من المصاعب بإذن الله.

فرح السلطان شرف الدين كثيراً لما سمعه، وقال للسلطان
علاء الدين:

- ما هو هذا الحلّ؟ قل لي بربك ما هو! على ما علمتُ
من كلامك أنّ هناك حلاً لكافة مشاكلي؟ هذا يعني أن هناك أشياء
أستطيع أن أفعلها لنفسي وبلدي؟
فردّ عليه السلطان علاء الدين مبتسماً:

- نعم، لا يوجد داءٌ بلا دواء في هذه الدنيا، الدواء الذي
سأصفُكَ لدائِكَ هو أنْ تقومَ برحلة، وأنْ تصلَ في نهاية هذه الرحلة
إلى ساحة الحياة.

عندما سمع شرف الدين هذا الكلام توسَّعت حدقتا عينيه
وبدأ يسأل سؤالاً تلو الآخر:

- ساحة الحياة؟ هل ستصبح هذه الرحلة دواءً للأمراض
التي تُعاني منها بلادي؟ ماذا لو تسبَّبت هذه الرحلة الجديدة
في مشاكل جديدة لبلادي؟ وما هو هذا المكان الذي تتحدَّث عنه!
لم أسمع عنه من قبل، كيف هو السبيل إلى ساحة الحياة هذه؟
وبعد أن فرغ شرف الدين من أسئلته بدأ السلطان علاء الدين
يجيبه:

- هناك بعض القواعد التي يجب أن تتقيَّد بها لكي تستطيع
الذهاب إلى ساحة الحياة، كما أن هنالك بعض المصاعب
التي ينبغي مواجهتها من أجل الوصول إليها، لقد قُمتُ بهذه
الرحلة قبل عدَّة أعوامٍ بناءً على توصيةٍ من والدي، وقد
كنتُ حينها على وشك أن أستلِمَ مِنْهُ السَّلطنة وأتقلَّد الحكم
في "المملكة الخضراء"، وقد عُدت من ساحة الحياة بكنزٍ أوصل
بلادي إلى هذه الحال التي تراها، صدقني، سترى أن الوصول
إلى هناك يستحق تحمُّل كلِّ هذه المتاعب.

وعلى الرِّغم من حديث السلطان علاء الدين المُشجِّع هذا
إلا أن السلطان شرف الدين كان يعتريه شيءٌ من التردد، فتوجَّه

إلى السلطان علاء الدين سائلاً:

- حسنًا، لنفترض أنني قبلتُ الخروج في هذه الرحلة،
ما الذي سيحصل بعد ذلك؟ أرجوك أن تُتابع حديثك.

وتابع السلطان علاء الدين حديثه:

- ستحتاجُ "شوقًا" للذهابِ إلى هناك.

قاطع السلطان شرف الدين حديثَ السلطان علاء الدين
بسؤاله:

- "شوق"؟ ماذا تقصد يا سلطان علاء الدين؟

فأجابه:

- نعم شوق، إنه جوادٌ أبيض اللون وهو عربيٌّ أصيل،
سيكون عونًا لك، وعليك ألا تُفارقه طوال الرحلة.

فسأل شرف الدين مجددًا:

- إذاً سيكونُ شوق هو جوادي في هذه الرحلة، وماذا بعد؟

فأجابه السلطان علاء الدين:

- ستمتطي صهوة شوق، وستسير لمدة أسبوعٍ باتجاهِ
المشرق، وبعد ذلك ستصل إلى صحراء مليئةٍ بشتّى أنواعِ
المخاطر حيث ستعاني من الحرِّ والعطش الشديدين.

كان كلُّ من سليمٍ وسليمانَ أصحابِ السلطانِ يُصغيانِ بمُنتهى الاهتمامِ إلى حديثِ السلطانِ علاء الدين، وفي الوقت الذي قال فيه السلطان علاء الدين: ”إذا ما نجحتُم في اجتياز الصحراء...“ قاطع سليم وسليمان السلطان علاء الدين، واعتذرا من السلطان شرف الدين عن الخروج في رحلة كهذه، وحاولا إقناع السلطان شرف الدين أيضًا بعدم الخروج في هذه الرحلة، وقالوا له:

- لا فائدة من الذهابِ إلى مكانٍ نجهله تمامًا، نستطيع العيش في بلادنا كما في السابق ودون أن نُغيّرَ من أحوالِ البلاد، كما أنَّه من الخطأ تعريضُ حياةِ السلطان للخطر.

دفع هذا الكلامُ السلطانَ شرف الدين إلى التّفكير لبعض الوقت، ولكنه كان يبدو عازمًا على الخروج في هذه الرحلة مهما كانت العواقب، تجاذب أطراف الحديث مع رفاقه مُجددًا بينما كان السلطان علاء الدين في هذه الأثناء يُراقبهم بصمت، وفي النهاية قرّر السلطان شرف الدين إرسال رَفِيقَيهِ اللّذين خافا مواجهة الصّعب قبل أن تبدأ الرّحلة إلى المملكة الزرقاء، وبعد أن ودّعهُما عاد مُجددًا إلى السلطان علاء الدين وقال له:

- ليس لديّ خيارٌ آخر وسأقوم بهذه الرحلة، هل لك أن تُعطيني معلوماتٍ إضافيةً عنها؟

فرِحَ السلطان علاء الدين بقرار السلطان شرف الدين،
وأجابه:

- لَدَيْ جَوَادٍ يُدْعَى شَوْقًا، لَقَدْ رَبَّيْتَهُ وَاعْتَنَيْتُ بِهِ لِمِثْلِ هَذِهِ
الرَّحَلَاتِ، مَا رَأَيْكَ أَنْ أُعْطِيكَ إِيَّاهُ؟

بَدَتْ الرَّاخَةُ عَلَى السُّلْطَانِ شَرَفِ الدِّينِ، وَقَالَ:
- شُكْرًا جَزِيلًا لَكَ، وَمَاذَا سَيَكُونُ فِي انتِظَارِي بَعْدَ اجْتِيَازِي
لِلصَّحْرَاءِ؟

قَالَ السُّلْطَانُ علاء الدين:
- كُنْتُ عَلَى وَشَكٍّ أَنْ أُخْبِرَكَ بِذَلِكَ، سَأُعْطِيكَ سَيْفًا وَقَوْسًا
وَسَهَامًا لاسْتِعْمَالِهَا طَوَالَ هَذِهِ الرَّحْلَةِ، وَسَيَكُونُ الصَّبْرُ أَكْبَرَ عَوْنٍ
لَكَ فِيهَا.

أَثَارَ السَّيْفِ وَالسَّهَامِ وَشَوْقِ فُضُولِ السُّلْطَانِ شَرَفِ الدِّينِ
كَثِيرًا، وَكَانَ يَنْتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ امْتِطَاءَ صَهْوَةِ شَوْقٍ وَالانْطِلَاقَ
فِي رَحْلَتِهِ بِسُرْعَةِ الرِّيحِ، وَبَيْنَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ تَدُورُ فِي ذَهْنِ
شَرَفِ الدِّينِ، أُعْجِبَ السُّلْطَانُ علاء الدين كَثِيرًا بِالْعِزِّ الَّذِي
أَبْدَاهُ، وَأَمَرَ بِتَجْهِيزِ شَوْقٍ، ثُمَّ جَلَبَ السَّيْفَ الْمَلْفُوفَ بِقِمَاشٍ
مِنَ الْمُخْمَلِ، الْمَوْضُوعَ دَاخِلَ صَنْدُوقٍ يَقْبَعُ فِي إِحْدَى زَوَايَا
الْغُرْفَةِ، كَانَ لِمَعَانِ السَّيْفِ كَافِيًا لِإِيقَازِ شَرَفِ الدِّينِ مِنْ خَيَالَاتِ
الرَّحْلَةِ الَّتِي كَانَتْ تَدُورُ فِي رَأْسِهِ، فَقَالَ:

- أهذا هو السَّيف الذي سأستعمله في أثناء الرحلة؟
 وضع السلطان علاء الدين غِمدَ السيف جانبًا، واقترب
 من شرف الدين، كان لمعان السيف مذهلًا، وكان يشبه
 إلى حدٍّ بعيد سيف سَيِّدنا عليٍّ، كانت الآيات المحفورة تملأ كافة
 أجزاء السَّيف من الجانبين، مدَّ السلطانُ علاء الدين السَّيفَ إلى
 السلطانِ شرف الدين، وقال له:
 - تفضَّل خُذه وليُباركهُ الله لك، ستستعمله إذا ما واجهتك
 المخاطر.

عاد السلطان علاء الدين إلى الصندوق مجددًا وأخرج منه
 قوسًا مصنوعًا من الذهب وعليه سهامٌ محفورةٌ عليها الآيات أيضًا،
 واقترب من السلطانِ شرف الدين المذهولِ بما رآه، وقال له:
 - تفضَّل، خُذْ هذا القوسَ وهذه السهامَ، فهي ستساعدك
 في رحلتك.

أعاد السلطان شرف الدين السيف إلى غِمدِه وهو في حالة
 ذهولٍ شديدة مما رآه، وتوجَّه بالسُّؤال للسلطان علاء الدين:
 - أينَ سأستخدم هذه السَّهام أيها السلطان؟
 فأجابه السلطان علاء الدين:

- قد لا يَكْفِيكَ السَّيف وَخُده عند اجتيازك للصحراء،
 وحينها ستستخدمها.

بدأ التردُّدُ يراوُدُ السلطانَ شرفَ الدين بسبب كثرة الاستعدادات التي سَتَسْبِقُ الرِّحْلَةَ والمخاطر التي قد يواجهها فيها، وعندما أَحَسَّ السلطان علاء الدين بهذا التردُّدِ أراد أن يوجِّهَ تنبيهًا آخَرَ للسلطان شرف الدين حيث حذَّره بأنه قد تواجهه مصاعب كثيرة أثناء هذه الرحلة، كما بَشَّرَه بأن الثمار التي سيَجْنِيها في النهاية كثيرةٌ أيضًا، فقال له:

- إذا ما قابلت في الصحراء أناسًا آخرين ذاهبين إلى ساحة الحياة، فإِيتَاكَ أَنْ تتعالَى على أحد منهم.
لم يستطع السلطان شرف الدين إخفاء دهشته وفضوله، وقال:

- إِذَا، هناك أناس آخرون في هذه الرحلة، أليس كذلك؟
فأجاب السلطان علاء الدين بثقة:
- بالطبع! قد تُصادف في طريقك أناسًا خرجوا في هذه الرحلة من أجل بلدهم أو من أجل أنفسهم أو من أجل عائلاتهم، فأنت لست الإنسان الوحيد الذي يسعى إلى التغلب على مآسيه.
فردَّ شرف الدين على هذا الكلام قائلاً:

- سأفعلُ ما قلته لي، لَنْ أَقْعَ في خلاف مع أحد ولنُ أتعالي على أحد، وعلينا جميعًا أن نكون كالجسد الواحد، إنك

على حق، فالوحدة مصدر القوة، إلى أين سنصل بعد اجتيازنا الصحراء؟

فأجاب السلطان علاء الدين:

- عليك أن تجد لنفسك خندقاً عندما تُشارف على اجتياز الصحراء، ستتابع طريقك انطلاقاً من هذا الخندق، واسم هذا الخندق هو "خندق الصبر"، أخي شرف الدين إليك وصيتي الأخيرة: إياك أن تكون عجولاً طوال رحلتك، عندما تصل إلى خندق الصبر ستجد هناك رجلاً مسنّاً يملأ الثور وجهه، حيث سيدلّك على ما تبقى من طريق لإتمام رحلتك.

وهنا بادّره شرف الدين سائلاً:

- حسناً، إذا ما تقدمت داخل الخندق فهل سأصل إلى ساحة

الحياة؟

ابتسم السلطان علاء الدين، وأجابه قائلاً:

- لا، لا... لقد قلت لك بأن الرجل المسن سيدلّك على ما تبقى من الطريق، وستعرّف عليه إذا ما انتبهت إلى كلامه بدقة. والآن، عليك أن تبدأ رحلتك دون إضاعة المزيد من الوقت، ستقطع مسافةً لا بأس بها من الآن وحتى المساء، أرجو من الله أن ييسر طريقك.

وبعد أن أديا صلاة العصر معاً اصطحب السلطانُ علاء الدين
السلطانَ شرف الدين إلى جواده شوق.



اللقاء الأول مع شوق

بعد خروجه من القصر رأى السلطانُ شرفَ الدين الجوادَ "شوق"، فلم يستطع أن يحوّل نظره عنه لشدة إعجابه به؛ فهو لم يسبق له أن وقعت عيناه على خيلٍ أصيلٍ كهذا، كان شوق يملكُ قوائم طويلةً وظهرًا عريضًا، ويبدو من وقفته وكأنه سيّطير، نظر شرف الدين إلى السلطان علاء الدين واحتضنه، وضمه إليه شاكرًا إياه، وضع شرف الدين السيف على خصره والقوس على ظهره وامتطى شوقًا، وما أن تحرّك شوقٌ وبدأ يعدو حتى خيّل إلى شرف الدين أنه يطير، بينما كان السلطان علاء الدين يَلَوِّحُ لبيده، ويدعو له بالتوفيق والسلامة.

كان شرف الدين متحمّسًا جدًّا للخروج في هذه الرحلة، حتّى إنّه قطع مسافةً مساويةً لمسير يومٍ كاملٍ قبل حلول موعد أذان المغرب، عندها قرّر أن يستريح في منزلٍ ويؤدي فيه

الصلاة، وبعد أن تناول عشاءه قرأ آيات من الذكر الحكيم وبعض الأدعية من كتاب "جوشن"^(١) حتى غشاه النعاس، بعد أن ألقى نظرة على السيف والقوس قال في نفسه: "اللهم إني أسألك التوفيق والسداد في رحلتي هذه"، ثم استلقى في فراشه، وتابع قراءة الأدعية ليُكَلِّلَ الله رحلته بالنجاح، وبعد فترة وجيزة خلد إلى النوم.

استيقظ في الصباح على صوت الأذان العذب، وعندما سمع قَوْلَ المؤذن "الصلاة خير من النوم" نهض من فراشه مسرعاً، وتوضّأ على عجل، وذهب إلى الجامع الواقع بالقرب من المنزل، وانضم إلى المصلين وغمره الشعور بالسكينة والطمأنينة الذي اعتاده عند أداء صلاة الفجر في جماعة.

بعد الصلاة عاد إلى المنزل وتناول طبقاً من الحساء، وتابع طريقه مصطحباً معه بعضاً من الزاد، كان شوق يُسابق الريح، وأما شرف الدين فكان مستمتعاً بهذا السباق وهذه السرعة، كان باستطاعة شرف الدين أن يُنهي رحلته -التي قال السلطان علاء الدين أنها ستستغرق أسبوعاً- في ثلاثة أيام إذا ما تابع السير على هذا المنوال، وفي الطريق خطر بباله ما قاله السلطان

(١) جوشن: تعني درع، وأدعية الجوشن هي مجموعة من الأدعية والأوراد المأثورة والمخصصة للحفاظ من الشرور.

علاء الدين عن الصحراء، حيث إنّ وزيره وصديقه المقربين إليه تخليًا عن الرحلة ما أن سمعا بالمصاعب التي ستواجههم فيها، ولكنه فضل أن يواجه المصاعب التي ستعرضه، فهل يستطيع مواجهتها فعلاً؟ وبينما كان يفكر في هذه الأمور تنبّه إلى سرعة شوق التي بدأت تقلّ رويدًا رويدًا، وبعد أن استعاد تركيزه حفّز شوقًا ليسترجع سرعته، فراح يتقدّم بسرعة فائقة، فكانت حركته السريعة تملأ قلب شرف الدين حماسة وإثارة شغلته عن الانتباه إلى طريقه، حتى فاجأه صوت قويّ أعاده إلى الواقع وعندها وجد الصحراء التي كان يقصدها أمامه.

بدأ يلتفت يمينًا ويسارًا محاولاً معرفة مصدر هذا الصوت الذي يُشبه صوت الرّعد، فدقّق في الصخور التي كان يمر بجوارها، وكيف يكون هذا الصوت صوت رعدٍ في وقتٍ تبدو فيه السماء صافية! وبينما شرف الدين في هذه الحالة يحاول معرفة مصدر الصوت تسمّر شوق فزعاً، وكأنّ ذلك الجواد الذي كان يسابق الريح قد أصبح جمادًا، وذهبت أدراج الرياح جميع محاولات شرف الدين لجعل شوق يتقدّم إلى الأمام.

عندها صَدَرَ صوتٌ آخر من خلف الصخور التي تقع بالقرب منهما، فبدأت دقات قلب شرف الدين تتسارع أكثر فأكثر،

وراحت أقدام شوق تغوص في الرمال، ووقف شرف الدين
يتساءل: ”ما هذا الصوت الذي زلزل الأرض؟“



هجوم اليأس

لم تُعدْ قدما شرف الدين تقويان على حمله إزاء هذه
المجريات، لقد جفَّ ريقُه وتباطأت أنفاسُه، وكادَ قلبُه يتوقف،
كان الصوت قريبا جدًا إلى درجة أن شرف الدين حبس أنفاسه،
واستعدَّ لمتابعة ما سيجري من حوله، ولم يعد يقوى على إبداء
أية ردّة فعل من شدة الرُّعب، ومع صوت زئيرٍ آخر؛ خرج من
خلف الصخور حيوانٌ بحجم الجَمَل شبيهٌ بالأسد، ولكنه ليس
بأسد.

كانت عينا هذا الحيوان الغريب بحجم قبضة اليد، وكانت
أسنانه حادة كالسكاكين، وهذه الأسنان المصطفّة في فكّيه تشبه
المنشار إلى حدٍّ بعيدٍ، وفمه يشبه المغارة عندما يزار، وبدا لشرف
الدين أنّه سيفترسه هو وشوقًا كلما فتح فمه.

كان شرف الدين يُحاول التّعرّف على هذا الوحش، وظنَّ
أنّه من إحدى المخاطر التي حدّره منها السُلطان علاء الدين،

ولم يكن شرف الدين مُخطئاً في توقُّعاته، إنه اليأس! نعم اليأس، وهو عدوٌّ لكلِّ شخصٍ يسعى لإحداث فَرْقٍ في العالم من حوله، قام اليأس بمهاجمتهما وكأنه على عُجالة من أمره، ففي البداية غرز كفه الأمامي في الرمال ونثرها في وجه شرف الدين؛ وأصبحت الرمال المتصاعدة تملأ المكانَ حتى تسبَّبت بانعدام الرؤية؛ وبعد أن أحسَّ شرف الدين أن اليأس خلفه، تعرَّض لصفعةٍ أوقعته من على صهوة فرسه شوق، فوق شوق هو الآخر أرضاً نتيجةً لتلك الصفعة، وأُصيب على إثرها.

ما أن انقشع غبار الرمال حتى رأى شرف الدين نفسه في مواجهةٍ مباشرةٍ مع فم اليأس الكبير المفتوح على مصراعيه، لقد كان اليأس على وشك أن يبتلعه، ولكنَّ شرف الدين مدَّ يده إلى خصره واستلَّ سيفه من غمده في لحظة حاسمة، وصرخ صرخة قويّةً منادياً "الله أكبر"، وهذا ما تسبَّب في إيقاف اليأس عن مهاجمته حيث كان لَمَعَانُ السيف يجبره على غلق عينه، حينها أدرك السلطان شرف الدين الوضع الذي آل إليه اليأس، فبدأ بمهاجمته دون توقُّف، وكان يُحاول أن يجرح هذا العدو اللدود في أيِّ مكانٍ من جسمه، وفي اللحظة التي كان يحاول فيها بكلِّ طاقته التخلُّص من اليأس، لمحت عيناه الآية الكريمة المنقوشة

على السيف والتي تقول: ﴿لَا تَقْطُومِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الزمر: ٥٣/٣٩]،
وعندها أدرك شرف الدين أنه سيستطيع التغلب على هذا العدو
إذا ما حاربه بأملٍ وصبرٍ، وبالفعل قام بذلك، ولكنه كان قد أصيب
بجروح هو وشوق، وبدأت قواهما تخور، وكان اليأس يثُرُ بقدميه
الرمالَ على شرف الدين كلما سنحت له الفرصة بذلك، ولكن على
الرغم من كلِّ تلك السليبيات؛ إلا أنه استطاع أن يجرَحَ اليأس -أحدَ
ألدِّ أعداء الإنسان- فولَّى اليأس هاربًا.

وبعد أن ابتعد اليأس عنهما، تنفس شرف الدين وشوق
الصعداء، ثم استراحا قليلاً ليستجمعا قواهما، ولتضميد جراحهما،
وعندما بدأت جراحهما تلتئم شيئاً فشيئاً؛ تابع السلطان وشوقُ
تقدُّمهما في الصحراء من جديد، ولكن كان من الواضح أن
صعاباً جمّةً ما زالت بانتظارهما، تبيّن أنّ ما اصطحبه معه من زادٍ
من المنزل الذي مكث فيه قد نُثر أرضاً أثناء عراكه مع اليأس،
وأضحى من الصعب جداً أن يتحمل الظروف القاسية وهو جائع
وعطشان.

وبينما كانت هذه الأفكار تدور في ذهن شرف الدين وهو
يتابع سيره في الصحراء، التقى بالمسافرين الذين تحدّث عنهم
السلطان علاء الدين، كان جميع هؤلاء المسافرين الذين أتوا

من أماكن متعدّدة ذاهبين إلى ساحة الحياة، وكانوا يمتطون جيادًا تشبه شوقا، وحين رآهم شرف الدين لاحظ الآثار المتبقّية على وجوههم والتي تدل على أنهم تعاركوا مع اليأس أيضًا، فعلى بعضهم آثار صفعات، وعلى بعضهم آثار رضوض وكدمات، وبعضهم الآخر ما زال وجهه مصفرًا وكأنه رأى اليأس للتوّ، وعندما تذكّر شرف الدين نصيحة السلطان علاء الدين حول الاتحاد والتضامن، وقف أمام جموع المسافرين وخاطبهم قائلاً:

- يا أيها المسافرون العازمون على الذهاب إلى ساحة الحياة!!

إنّ هذه الصحراء مليئةٌ بالمصاعب، ولا يمكن أن يتجاوزها كلّ منا بمفرده، تعالوا نجتمع ما نملكه من طعامٍ وشرابٍ، ونقطع ما تبقى من الرحلة سوياً حتى نصل إلى برّ الأمان.

اقتنع المسافرون بهذه الفكرة، لأنّه من الصعوبة بمكان أن يسيرَ الشخصُ بمفرده في هذه الظروف القاسية السائدة في الصحراء، ومضى المسافرون في رحلتهم معاً، ولكن ما لبث الماء أن نفذ، وبدأ القلق يساورهم، فأخذوا يقدمون الآراء لحلّ مشكلتهم هذه، كانت المشكلة تكمن في أنّ أحداً منهم لم يستمع لما قاله رفاقه بل اكتفى كلّ منهم بأن يقول ما عنده ويصّرّ على فكرته دون الإنصات لآراء الآخرين أو أخذها بعين

الاعتبار، بل إنَّ بعضَهم قال: ”إذا لم تفعلوا ما أقوله فسنموت جميعاً من العطش“، ووصلت حدّة هذه النقاشات أحياناً إلى حدّ التدافع والشجار فيما بينهم.

وفي نهاية المطاف قرّر بعض المسافرين إكمال رحلتهم وحدّهم ظلّاً منهم أنهم اجتازوا القسم الأكبر من الصحراء، أما من تبقى فقد قرروا السير في طريقهم بشكلٍ جماعيٍّ، ولكن ذلك لم يكن سهلاً، لأنّ تضامّنتهم ووجدتّهم كانت قد تزعزعت، وكان شرف الدين ومنّ تبقى معه قليلي العدد والعتاد، ولم يكن قد تبقى معهم أيُّ شيءٍ من الطعام والشراب... تُرى أيّ صعوبات ما زالت بانتظارهم؟!



الغرق في الرمال

لم يَدُم تأثير نصيحة شرف الدين كثيرًا على المسافرين فقد انفصل أغلبهم عن المجموعة بعد أوّل صعوبة واجهتهم، وقد رَغِبَ المسافرون المتسرِّعون الذين لم يتحلَّوا بالصبر في اجتياز الصحراء قبل غيرهم مُعتقدين أنّهم قاربوا على الخروج منها، فامتطى كلّ واحد منهم صهوة جواده وابتعدَ مسرعًا، وكان شرفُ الدين ومن تبقى معه من المسافرين يراقبونهم عن كثب.

تقدم المسافرون في الصحراء بسرعةٍ غير مُدركين للأخطار التي تنتظرهم فوق رمالها المُلتهبة، وهم في غفلة عن الرمال المتحركة التي كانت تنتظرهم، أما شرف الدين ومن معه فقد تابعوا طريقهم بخطى ثابتةٍ بشكلٍ جماعيٍّ، وبعد مرور بعض من الوقت اقتربوا من المسافرين الذين انفصلوا عن المجموعة، اندهش شرف الدين ومجموعته من اللقاء بهم بعد مرور مُدّةٍ زمنيةٍ

قصيرة على انفصالهم عنهم، وقد كان من المفترض أن يكون هؤلاء المسافرون الذين تكبروا عليهم وابتعدوا عنهم مسرعين قد قطعوا مسافات أكبر ووصلوا إلى أماكن أبعد، وبعد أن أبصروهم عن قرب أدركوا أنهم قد غاصوا في الرمال ولم يُعَد باستطاعتهم التّقدّم ولو لخطوة واحدة، لقد كانت الرمال المتحركة خطيرةً جدًا لدرجة أنها كانت تبتلع مَنْ يقع فيها رويدًا رويدًا، حزن شرف الدين وأصدقاؤه كثيرًا على هذا الوضع، وحينما وصلوا إليهم كان المسافرون الذين فضّلوا الاستعجال على الصبر قد غرّفوا جميعًا في الرمال، وحينما رأى المسافرون عاقبة أصدقائهم تأثروا كثيرًا وقالوا: "ليتهم ما فضّلوا العجلة على الصّبر، وليتهم ما انفصلوا عن المجموعة".

وبناءً على هذه الأحداث تذكّر شرف الدين ما قاله السلطان علاء الدين بأن عليه أن يتقدّم في طريقه بحذرٍ إلى أن يصل إلى الخندق، وأدرك أن عليهم أن يعبروا بحذرٍ شديد المنطقة التي غرق فيها أصدقاؤهم، ولذلك قاموا بربط بعضهم البعض بحبلٍ قويٍّ بعد أن لُفّوا ذلك الحبل على خواصرهم، وكانت غايتهم من وراء ذلك هي سحب كل من تُهدّده الرمال المتحركة بالغرق، وسار الجميع خلف شرف الدين، وبدؤوا التقدّم ببطءٍ

وهم يراقبون خطوات شوق، وكأن هناك مسارًا ضيقًا مُعَيَّنًا في هذه الصحراء يسرون عليه بحذرٍ شديدٍ جدًّا، وكأنهم يحاولون اصطِيادَ طائرٍ دونَ أنْ يُفزعوه فيهرب.

وعندما لمحووا الأشجار من بعيد أدركوا أنهم شارَفُوا على اجتياز الصحراء، وكان بإمكانهم اجتياز ما تبقى من الصحراء في غضون دقائق، لكن رغبةً من انفصلوا عنهم أن يكونوا أوَّل من يجتاز الصحراء مع السرعة التي بدرت منهم أودت بحياتهم، وهذه المشاعر كانت تعترى شرف الدين أيضًا، ففكّر للحظات لو أنه يَحُثُّ شوقًا، ويغُبر ما تبقى من الصحراء المترامية أمامه في وقت قصير، وكان هناك آخرون أيضًا خطرت ببالهم الفكرة نفسها، لأن الحبل الذي يربطهم ببعض كان يشتدّ تارةً ويُرْتَخي تارةً أخرى.

وفي نهاية المطاف تغلّبت تلك المشاعر على بعضهم، فقاموا بحلّ الحبال من ظهورهم، وبدؤوا الجري، راقب شرف الدين مطوّلًا هؤلاء المسافرين الذين بدؤوا بالابتعاد عنه، كان عليه ألا يستعجل على الرغم من رؤيته نهاية الطريق، وأن يتابع تقدُّمه الحذر إلى أن يجتاز الصحراء بكاملها، في اللحظة التي كان يراقب فيها السلطان شرف الدين المسافرين الذين انفصلوا

عن المجموعة للتوّ، تساءل بينه وبين نفسه قائلاً: ”هل سنلتقي
معكم ثانية يا ترى؟“
عندها بدت من بعيد ملامحُ الخندق الذي أخبر عنه السلطان
علاء الدين.



نُسُور الصَّحْرَاءِ

تَابَعَ شَرَفُ الدِّينِ وَمَنْ تَبَقَّى مَعَهُ مِنَ الْمَسَافِرِينَ سِيرَهُمْ
بِاتِّجَاهِ الْخَنْدَقِ، وَمَعَ اقْتِرَابِهِمْ بِدَوِّهِمْ يَسْمَعُونَ أَصْوَاتًا تُقَشِّعِرُ
لَهَا الْأَبْدَانُ خَافَ مِنْهَا الْمَسَافِرُونَ وَجِيَادُهُمْ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ،
وَتَسَاءَلُوا دُونَ أَنْ يُفْصَحُوا عَنْ مَخَافَتِهِمْ: تُرَى هَلْ هَذَا نَذِيرٌ
بُوحْشٍ جَدِيدٍ يَنْتَظِرُهُمْ؟

وَأَخَذُوا يَنْفَحُّونَ مَا حَوْلَهُمْ بِرَعْبٍ، لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ
أَصْوَاتًا لِنُسُورِ الصَّحْرَاءِ الَّتِي هَاجَمَتِ الْمَسَافِرِينَ الَّذِينَ انفَصَلُوا
عَنِ الْمَجْمُوعَةِ مِنْ قَبْلِ، كَانَتْ أَحْجَامُهُمْ كَبِيرَةً وَأَعْدَادُهُمْ وَفِيرَةً،
حَتَّى بَدَأُوا كَغَيْمَةٍ سَوْدَاءٍ غَطَّتِ السَّمَاءَ، يُرَافِقُهُمْ صَفِيرٌ قَوِيٌّ جَدًّا،
بَدَأَ شَرَفُ الدِّينِ وَرِفَاقُهُ بِالتَّضَرُّعِ إِلَى اللَّهِ سِرًّا أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ هَذَا
الْمَآزِقِ السَّالِمِينَ، وَأَصْوَاتُ أَجْنَحَةِ النُّسُورِ وَهِيَ تَحْتَكُ فِيمَا بَيْنَهَا
تَغْمِرُ الْمَكَانَ بِضَجِيجٍ أَحْسُوا مَعَهُ كَأَنَّهُمْ يَقْفُونَ تَحْتَ شَلَالِ مِيَاهٍ
هَادِرٍ وَالْغُبَارِ يَعْجُ بِالصَّحْرَاءِ كُلِّهَا مِنْ حَوْلِهِمْ!

هرب اثنان أو ثلاثة من المسافرين من بين المجموعة بصورة هستيرية نتيجةً لنوبة الرعب التي أصابتهم، ولكنَّ النُورَ ما أن رأتهُم حتى انقضَّت عليهم بوحشيةٍ وعنف، فقتلت أحدهم بضربةٍ من منقارها غرسته في جسده، وحملت آخرَ بمخالبها وطارت به بعيداً، تحوَّل الموقف إلى مأساةٍ عظيمةٍ بالنسبة للباقيين؛ وقد أصبح الجميع عديمي الحيلة نتيجةً لما حلَّ بهم من رعبٍ شديدٍ.

أما شرف الدين الذي كان يتابع كلَّ ما يجري أمامه، فقد أخرج قوسه وجَهَّز سهماً بداخله، وعندها وقعت عيناه على الآيات المنقوشة على السهام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [سورة المائدة: ٥٠/٨]، وأدرك حينها أنَّه لا سبيل أمامهم سوى الوحدة للتخلص من النُور، فلقد ضعفت قوتهم بسبب تخليهم عن الوحدة فيما بينهم وبسبب تحركهم بشكلٍ فردي، ولكن لم يكن هناك وقت للإفصاح عن هذه الحقيقة، ولم يكن هناك من يستمع إليها في هذه الظروف العصيبة.

انضمَّ شرف الدين إلى من تبقى من المسافرين، واختبأ معهم خلف كومة صخور، وفي هذه الأثناء كان سِرْبٌ من النُور يتَّجه بسرعة نحو شرف الدين، وكان عليه أن يتصرَّف سريعاً، فبدأ

يرميهم بالسهم التي لم يُخطئ أيُّ منها بل كانت تصيبُ النُسُورَ الواحدَ تِلْوَ الآخرِ، وعندما رأى المسافرين الذين تفرقوا يَمَنَةً ويسرَةً شرفَ الدين وهو يقاتل النُسُور، تغلبوا على خوفهم قليلاً، وبدؤوا يتجمَّعون حوله، لم تستطع النُسُور مقاومة سهام شرف الدين كثيراً، وفي النهاية لاذت بالفرار، بينما كان صفيهم يشقُّ عنان السماء.

وهكذا استطاع السلطانُ ومن احتَمَى به من المسافرين النُّجاة من هجمات النُسُور التي أصابتهم ببعض الجروح، إضافةً إلى ما نالهم من تعبٍ وإرهاقٍ، ولكن التوقُّف لم يكن الخيار المناسب الآن وقد بات خندق الصبر قريباً جداً منهم.



خندق الصبر

كان شرف الدين كلما اقترب من الخندق يقول فرحاً: "إنه الخندق الذي تحدّث عنه السلطان علاء الدين"، وملاّت الطمأنينة قلبه عندما رأى باب الخندق الذي كان يضاهي في روعته أبواب القصور البهيّة، كان أول ما رآه شرف الدين هو الآية الكريمة المكتوبة على مدخل الخندق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠/٣].

بعد أن دخل شرف الدين مع جواده شوقٍ إلى الخندق ارتاح قليلاً، فكان النسيم العليل يملأ جنبات الخندق وكأنّهم في أيام الربيع، والأمان يسود كلّ مكان داخل الخندق الذي بدا لهم وكأنه قصرٌ عامرٌ، شعر شرف الدين وأصحابه وكأنّ الصحراء قد انشقت وظهر أمامهم وادٍ خصيب، فيه ما يكفي من الطعام والشراب لإتمام الرحلة التي ستنتهي هذه المرحلة منها عند اجتياز الخندق ونهاية الصحراء.

رأى شرف الدين أنه من الأفضل أن يُمضي ليلته في الخندق لينال قسطاً من الراحة، وهكذا كان حال من معه من المسافرين الذين خلد بعضهم إلى النوم بمجرد دخولهم إلى الخندق.

بعد صلاة العشاء قرأ شرف الدين آيات من القرآن الكريم ودعاء الجوشن لبعض الوقت، ثم استلقى على ظهره وأخذ يراقب السماء، كان يشاهد النجوم المتلألئة في السماء من جهة، ويفكر برحلته من جهة أخرى، ويتساءل إن كان سيتمكن من الوصول إلى ساحة الحياة أم لا؟ لقد كانت لديه رغبة عارمة في تغيير أحوال بلاده، وبعد تأملٍ طويلٍ تذكّر الآيات الكريمة التي أنقذته منذ بداية الرحلة: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الزمر: ٥٣/٣٩]، و﴿كُونُوا آمِينَ لِلَّهِ﴾ [سورة المائدة: ٨/٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠/٣].

بينما كانت هذه الأفكار تجول في خاطر شرف الدين إذ غطّ في نوم عميق، ولم يستيقظ إلا على صوت الأذان فجراً، فتوضأ على الفور وهمّ لصلاة الفجر التي جلبت إلى قلبه السكينة والطمأنينة مع النسيم العليل الذي كان يهب في ذلك الصباح، وبعد أن أدى صلاته مكث لبعض الوقت في موضعه، وتضرّع بالدعاء إلى رب العالمين لكي يوفقه فيما تبقى من رحلته، كان

عليه بعد الانتهاء من الصلاة والدعاء أن يبدأ في تجهيز "شوق" والبدء في المسير والتقدم عبر الخندق لإيجاد الشخص الذي تحدث عنه السلطان علاء الدين، والذي سيزوده بالمعلومات المتعلقة بما تبقى من الرحلة، ومع تقدمه في الخندق أحس السلطان أن "شوقاً" متحفزاً ليسرع في مشيته وكأنه يريد أن يخرج من الخندق على عجلٍ وينطلق في سباق مع الريح.

وبعد أن واصل شرف الدين سيره في الخندق بدأ يرى أناساً من مختلف الأعمار في أرجائه، وفي أحد جوانبه وقعت عيناه على جمهرة من الناس، فأتجه نحوهم، وعندما اقترب منهم وجدهم يتحلقون حول رجلٍ مُسنٍ مُنصتين إليه باهتمامٍ، فانضم إليهم حتى يتمكن من سماع ما يقوله لهؤلاء الناس.

كان هذا الرجل المُسن يتحدث عن رحلة ما، وعندما أنصت شرف الدين جيداً إليه لاحظ أنه يتحدث عن الطريق إلى ساحة الحياة، لقد كان هذا الرجل المُسن الذي يَشعُّ النور من مُحيّاه يعرف تمام المعرفة كل تفاصيل الطريق الذي تمّ قطعه منذ بدايته إلى هنا، وذكّر من يستمع إليه كم كانوا ناجحين أثناء رحلتهم، وتحدّث عما يجب عليهم فعله من الآن فصاعداً، وعندما سمع شرف الدين هذا الكلام بدأ يُراوده شعورٌ بأنه كان أكثر المسافرين

نجاحاً أثناء هذه الرحلة، لم يكن الرجل المسنّ قد انتهى من حديثه حينها، وكان لديه الكثير مما سيُحدّث به الآخرين، ولكنه في تلك اللحظات -التي كان الغرور قد بدأ يتسلّل فيها إلى نفس شرف الدين- توجّه الرجل المُسنّ إلى الناس قائلاً:

إن ألدّ أعدائكم بعد خروجكم من هذا الخندق هو الغرور، من الخطأ الجسيم أن يتعالى أحدكم على غيره، بعد هذا الخندق ستجدون أمامكم نهراً عليكم عبوره، وقبل أن تصلوا إليه ستجدون وادياً صغيراً، عليكم أن تعبروا هذا النهر سوياً، بل عليكم أن تشاوروا فيما بينكم حول كيفية عبوره، وأثناء عبوركم للنهر يتوجّب على الجميع أن يُؤدّي ما وُكِّل إليه من عمل على أكمل وجه.

ارتعد شرف الدين من حديث هذا الرجل، وبدأ يتساءل إن كان هذا هو نفس الرجل الذي تحدّث عنه السلطان علاء الدين والذي سيذلّه على ما تبقى من طريق؟! فقد تأثر كثيراً بحديثه وغيره من المسافرين الذين التّفوا حوله، واقترب شرف الدين منه أكثر، وبدأ يستمع إلى ما يقوله باهتمام أكبر، كان الرجل المُسنّ حينما يتكلّم ينظر إلى الأفق، ويتحدّث بهدوء وبثقة عالية، وبدا صوته هادئاً لكنّه ليس ضعيفاً، وحاسماً دون جدّة، مما منحه قدرة

عاليةً على التأثير في الآخرين وإقناعهم، لم يكن واضحًا تمامًا فيما إذا كانت عيناه مفتوحتين أم مغلقتين، وكان يرتدي رداءً بسيطًا ونظيفًا مع كونه رثًا وقديمًا، وعمامة بيضاء فوق رأسه تبدو وكأنها ثلوجًا تُغطي قمم الجبال، نعم، إنه بالتأكيد الرجل الحكيم الذي كان من المفترض أن يصادفه شرف الدين في خندق الصبر. وعلى حين كان شرف الدين يُفكّر في خواطره هذه؛ تحدّث الرجل الحكيم عن قصر سيلجأ إليه المسافرون للتخلّص من عدوّ سيواجههم عند عبورهم تلة تقع خلف النهر الذي سيقابلونه في طريقهم، إلا أنه لم يخبرهم كيف ومتى سيجدونه، قبل المسافرون يدي العجوز بعد انتهاء حديثه وكذلك قبل شرف الدين يده آملًا أن يدعو له الرجل الحكيم هو أيضًا، ولكن الرجل المسنّ سبقه بالدعاء له دون أن يطلب منه، ووضع يده على كتف شرف الدين قائلاً: ”أنار الله دربك يا ولدي، إياك أن تُصابَ بالغرور مهما كانت الأسباب“، كان هذا الدعاء مفاجئًا بالنسبة لـ”شرف الدين“، وأكمل طريقه وهو يَكِنُّ كلَّ احترامٍ وتبجيلٍ لذلك الرجل المسنّ. لقد كان المسافرون الذين تركوا خندق الصبر مرتاحين تمامًا، فقد أتمّوا استعداداتهم للسفر جيّدًا، وانتابهم إحساس بالسعادة الغامرة والفخر لِتمكّنهم من الوصول إلى هذا المكان سالمين

نظرًا لقلّة الواصلين إليه، وقُبيلَ البدء بالسفر كانت السعادة التي يشعرون بها قد تحوّلت إلى ثقةٍ بالنفس رويدًا رويدًا، لكنهم لم يُدركوا كمّ المصائب التي سيجلبها لهم هذا الشعور المُفْرِط بالثقة بالنفس، مع أنهم استمعوا إلى نصائح الرجل المُسنّ بهذا الخصوص منذُ قليل، وبمجرّد خروجهم من الخندق بدأت مشاعر التكبرِ والغرورِ تعترِيهم وأحاطتهم بإحساسٍ من الشاؤم وكأنها تنبئهم بالأمور السيئة التي تنتظرهم.



تيار النهر الجارف

بعد أن غادر المسافرون الخندقَ وجدوا أنفُسَهم في مكانٍ رَحْبٍ وشاسعٍ كانت الغابات تُحيط بالطريق من جانبيه، ولم يكن المسافرون قد حدّدوا بعدُ الاتجاهَ الذي سيسيرون فيه للوصولِ إلى النهرِ الذي تحدّث عنه الرجل الحكيم، بعد برهةٍ من الزمن بدأت أصواتُ المسافرين تعلو، وبدأ أغلبهم بالسير في عدّة اتجاهاتٍ دون مشاورة الآخرين، وكأنهم لم يستمعوا منذ ساعاتٍ قليلةٍ إلى ذلك الحكيم وهو يُحدّرهم من تصرّفٍ كهذا، لقد نسُوا سريعاً أنّ اتّحادهم هو أفضلُ سلاحٍ لديهم، أما شرف الدين الذي كان يُراقب المسافرين الذين انفصلوا عن المجموعة، فقد تذكّر نصائحَ السلطان علاء الدين والرجل المُسنّن، فاعترض سبيلهم، وقال لهم:

- لا نعرف ماهيَّة المخاطر التي تنتظرنا، دعونا نبقي معاً حتى نجد النهر ونَعْبُرَ إلى الضفَّةِ المقابلة، فمهما كانت المخاطر التي تنتظرنا فسوف نتمكَّن من التغلُّبِ عليها طالما أننا متَّحدون. استهزأ أغلب المسافرين بكلام شرف الدين، وواصل كلَّ واحد منهم سيره كما يحلو له، فاتَّجه بعضهم إلى الغابة الواقعة إلى يمين الوادي، وبعضهم إلى الغابة الواقعة إلى يساره، وغابوا عن الأنظار بين الأشجار، وعندما رأى شرف الدين عدم مبالاتهم، بدأ هو أيضاً يظُنُّ أنَّ بإمكانه إكمال الطريق وحده، وأنه ليس بحاجةٍ إلى أحدٍ منهم، ولكنه تذكَّر على الفور أنه لم يقدر منذ البداية على الاستمرار في الرحلة إلا عندما طُبِّقَ النصائح التي قُدِّمت له، وكان يحاول ألا ينسى أن التصرُّفَ الفردي دون استشارة الآخرين سيتسبب في مصاعب شتَّى وأنه قد يؤدي إلى إنهاء الرحلة قبل الأوان.

على الرغم من حزنه على عدم استماع أغلب أصدقائه له إلا أنه لم يعد لديه خيار آخر سوى متابعة الطريق مع من بقي من المسافرين استجابوا لنصحه، وبدؤوا السير في الوادي وهم يسابقون الريح بجيادهم، وصل المسافرون إلى حافة ساقية صغيرة، فبدأ السلطان شرف الدين يتابع سيره مع الساقية وهو

يقول: "أظنُّ أنَّ هذه الساقية ستقودنا إلى النهر الذي تحدّث عنه الرجل المسن"، كان شوقُ يسابُقِ الريحَ وهو يسيرُ إلى جانب الساقية متبوعًا بالبقية، ولم يكن السلطان شرف الدين مخطئًا في توقعاته؛ فقد وصلوا في نهاية المطاف إلى حافة النهر الذي تحدّث عنه الرجل المسنّ، ولكنّه كان يبدو عميقًا جدًّا، ومتدققًا جدًّا يحمل تيّاره الهائجُ كلَّ ما يقف في طريقه؛ حتى جذوع الأشجار الضخمة لم تُسلم من قوَّته الجارفة.

نعم، وجد المسافرون النهرَ الذي كانوا يتظرونه، ولكنهم الآن عالقون على إحدى ضفّتيه يفكّرون في طريقةٍ لعبوره، خطر لـ"شرف الدين" أن يحاول معرفة عمق النهر؛ فترجّل من على حصانه، والتقطَ بعض الحجارة الضخمة وألقى بها في مياه النهر، فصدرت عن تلك الحجارة أصواتٌ كتلك التي تُسمع عند إلقاء الحجارة في بئرٍ عميقة، ثم إن الضفّة الأخرى كانت على مسافة بعيدةٍ منهم، لم يكن بيد المسافرين أن يفعلوا شيئًا سوى محاولة إيجاد ممَرٍ يعبرون من خلاله إلى الضفة الأخرى، ولكنهم ظلُّوا على حافته يتقدمون تارةً ويتراجعون تارةً آملين أن يعثروا على طريقةٍ للعبور، فلا بدَّ أن تكون هناك طريقة يتخطّون بها هذه العقبة.

وبينما كان المسافرون يفكّرون بما يمكنهم فعله كانت مياه النهر تسير بسرعة جارفة، فمن العسير العبورُ إلى الضفةِ المقابلةِ سباحةً؛ ولذا امتطى المسافرون صهواتِ جيادهم، وتابعوا مسيرهم مع النهر باحثين عن مكان تكون مياهه أكثر هدوءاً وسكوناً، ولكن النهر كان في هذا المكان أيضاً عميقاً جدّاً، ولم يتجرأ شرف الدين وأصحابه على عبور النهر سباحة من هذه النقطة أيضاً، في النهاية قرروا أن يصنعوا زورقاً يعْبُرُون النهر بواسطته، وقد أعجبت الفكرة جميع المسافرين، ولم يكن أمامهم في الواقع خيارٌ آخر، بدؤوا يبحثون في الجوار عن أشجارٍ مناسبةٍ لصناعةِ الزورقِ، وأخذوا يربطونها ببعضها البعض بواسطة أغصان اللبلاب^(٢)، استخدم شرف الدين السيف الذي منحه إياه السلطانُ علاء الدين ليَقْطَعَ به أغصان اللبلابِ، ومع كلِّ ضربةٍ يضربُها تترسّخُ في ذهنه تلك النصائح الغالية التي وجهها له.

أصاب التَّعبُ المسافرين نتيجةً للعملِ الشاقِ الذي قاموا به والجهد الذي بذلوه في صناعة الزورقِ، كذلك الحال مع السلطان شرف الدين الذي جلس هو أيضاً تحت ظلِّ شجرةٍ

(٢) نوع من أنواع الأشجار ذات الغصون الكثيرة والكبيرة والسميكة الخضراء.

قريبة لينال قسطاً من الراحة، وبينما كان يراقب زَبَدَ مياه النهر التي كانت تجري بسرعة رَنَتْ عيناه بعيداً، فرأى بعض الأشخاص يقتربون من المكان الذي يتواجد فيه، وعندما دَقَّقَ النظر فيهم أدرك أنهم من المسافرين الذين انفصلوا عن المجموعة وساروا في اتجاهاتٍ مختلفة بعد خروجهم من خندق الصبر، كان يبدو على وجوههم التعب الشديد ونال الإرهاق من أجسادهم، وكان البعض منهم مصاباً بجروح، وكأنهم تعرّضوا للهجوم من قبل الحيوانات البرية التي تعيش في الغابة، كان شرف الدين يشعر بالغیظ من هؤلاء المسافرين لإعراضهم عن النصيحة التي وجَّهها لهم بعد خروجهم من الخندق وإصرارهم على التصرف وحدهم دون استشارة البقية؛ فلم يُظهر اهتماماً بمجيئهم، ونهض من مكانه وكأنه لم يَرَهُم قطّ، وتابع قطع اللُّبلاّب الذي سيستخدمه في صناعة الزورق، بل إنه فكّر بعدم مشاركة أولئك القادمين في الزورق الذي صنعه هو وأصحابه، وخطر له أن يقول لهم: ”ما دمتم قد فضّلتُم الانفصال عن المجموعة والتَّصرف بشكلٍ فرديٍّ فعليكم أن تتدبَّروا أموركم“، ولكن الكتابة التي رآها على إحدى الأشجار أثناء قطعه اللُّبلاّب لفتت انتباهه، لقد كان مكتوباً على تلك الشجرة الحديث الشريف: ”خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمُ لِلنَّاسِ“، وعندما رأى شرف الدين هذا الحديث

شَعَرَ وكأنَّ صاعقةً قد ضربته، فدمَّدَمَ قائلاً: ”ما الذي أَفْعَلُهُ؟“
لقد كُنْتُ على وشكِ الانغماسِ في مُستنقعِ الأنانيةِ، وكنت على
وشكِ أن أَضَيِّعَ فرصةَ أن أَكونَ إنساناً صالحاً حينما فَكَّرْتُ
في نفسي فقط.“

وترك العمل الذي كان يقوم به وسَارَعَ إلى مُساعدة المُسافرين
الذين تَجَمَّعُوا حوله، وأبْدَى اهتماماً بكلِّ واحدٍ منهم، وحاول
أن يرفعَ مِنْ مَعْنَوِيَّاتِهِمْ جميعاً، كذلك فَعَلَ المسافرون الآخرون
وسارَعوا لمُساعدة زملائِهِم الجرحى، فَضَمَّدُوا جراحَهُم وأمَّنُوا
الراحةَ لَهُم، وبعد ذلك قال شرف الدين لزملائِهِ إنه يَجِبُ عَلَيْهِمُ
أن يصنعوا زورقاً أكبرَ يَتَسَّعُ لِلْمَسَافِرِينَ الَّذِينَ انضَمُّوا إِلَيْهِمْ
مجدِّداً، ووَزَّعَ عَلَيْهِمُ الْمَهَامَ لِيَجْمَعُوا أَغْصَاناً أَكْثَرَ وَيَقْطَعُوا
المزيدَ مِنَ اللَّبْلَابِ، وفي النِّهَايَةِ تَوَحَّدَتْ جُهُودُ الْجَمِيعِ فَصَنَعُوا
زورقاً كبيراً يَتَسَّعُ لِعَشْرِينَ شَخْصاً إِضَافَةً إِلَى جِيَادِهِمْ، كان
من الممكن أن يَتْرُكَ الْمَسَافِرُونَ الْجِيَادَ تَعْبُرُ النُّهْرَ سَبَاحَةً، وَلَكِنْ
لَمْ يَشَأْ أَحَدُهُمْ أَنْ يُعَرِّضَ حَيَاةَ جَوَادِهِ لِلْخَطَرِ بِأَنْجِرَافِهِ مَعَ تَيَّارِ
النَّهْرِ الْعَادِرِ.

وبعدَ مَرُورِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ اسْتَكْمَلَ الْمَسَافِرُونَ صِنَاعَةَ الزُّورِقِ،
وَوَضَعُوا فِي جَانِبَيْهِ عَشْرِينَ مِجْدَافاً، وَقُبِّلَ رُكُوبُهُمُ الزُّورِقَ
خَاطِبَ شَرَفُ الدِّينِ جُمُوعَ الْمَسَافِرِينَ قَائِلاً:

يجب على الجميع أن يُجَدِّفَ بقوةٍ لِكَي نَصِلَ إلى الضِّفَّةِ
المقابلة سالمين، فالمياه في هذا المكان وإن بَدَتْ هادئةً
إلا أن تيارها قويٌّ، أيُّها الأصدقاء علينا جميعاً أن نَعْبُرَ إلى الضفة
المقابلة الآن، كان الله بعوننا جميعاً، فلتسامحوا بعضكم البعض
اعتباراً من هذه اللَّحْظَةِ، وبالنَّسْبَةِ لي فأنا أُسامحكم جميعاً.

بعدَ سماعِ هذا الحديثِ تبادلَ المسافرون عباراتِ التَّصَالِحِ
والتَّسامحِ ثم توجَّهوا إلى الزَّورقِ، فاحتلَّ كُلُّ واحدٍ منهم مكانه
على أطرافِهِ لضمان توازنه ووقفت جياذهم في مُتَصفِهِ، التقط
كلُّ مُسافرٍ مِجْدافَهُ، واستعدَّ الجميع في مواقعهم يُعَدُّون أنفسهم
للتَّجْدِيفِ بكلِّ قوَّةٍ وعزمٍ وتناغمٍ حتَّى يَنجُو بحياتهم من تيار
النهر الجارف، وما أن انقطع حبل اللَّبْلَابِ الذي كان يربطهم
بالضِّفَّةِ حتَّى بدأ هذا الصِّراعُ الجديد في رحلتهم.



عندما نتخلى عن المجاديف

جَدَّفَ المسافرون بكلَّ قُوَّتِهِمْ، وسارَ الزورق مع النَّهر في هدوءٍ دون الكثير من الاهتزاز أو التَّمَائِلِ لأنَّ الجميع كانوا يعملون في انسجامٍ تامٍّ أَوْصَلَهُمْ إلى مُنتَصَفِ النَّهر بِسلام...
وحينها بدأ الغُرور يَدْخُلُ قلوبَ بعض المسافرين إضافةً إلى عدم الشعور بالمسؤولية؛ فتوقَّفوا عن التَّجْدِيف ظَنًّا منهم أنَّه لا حاجة لكلِّ هذا الجهد، بل إنَّ بعضهم دَلَّوا أَقْدَامَهُمْ في الماء يَمْزِحُونَ ويتصاحكون ويأْتُونَ بأفعالٍ غريبةٍ لا تُناسب الموقف حتى قال بعضهم باستخفاف:

- لا يوجد هناك ما يُخيف، لقد أضعنا عشرة أَيَّامٍ ونحن ننتظرُ عبورَ النهر ولم تكن هناك أية حاجة لذلك.

أَمَّا البعض الآخر فقد رَمَى مِجدافه في النهر وهو يقول:
- إنَّ عدَدَنا كبيرٌ بما يكفي وإنَّ توقُّفَ شخصٍ أو اثنين عن التَّجْدِيف فلن يغيِّر ذلك في الأمر شيئاً.

وبازدياد أعداد الذين رَمَوْا مجاديفهم في النَّهر بدأت حركة الزورق تختلُّ شيئًا فشيئًا، عندها لاحظَ شرف الدين بدءَ انجراف الزورق مع التيار فخطب المسافرين الذين معه قائلاً:

- ماذا تفعلون يا أصدقاء؟ إذا ما تركتم المجاديفَ فإننا جميعًا سننجرِف مع التيار، أرجو أن يعودَ كُلُّ واحد منكم إلى عمله... انظروا!! حتى الجيادُ بدأت تتأثر.

ضحك أحدُ المسافرين الذين وضعوا أرجلهم في مياه النهر، وقال "لشرف الدين":

- يا أخي! لم يَبْقَ الكثيرُ لنَعْبُرَ إلى الضفَّةِ المقابلة، دعنا وشأننا فقد لا نَجِدُ فُرْصَةً أخرى للاستمتاع بمياه النهر، اتركنا نلهو قليلاً، لماذا أنت قَلِق؟

وفي هذه اللحظة اهتزَّ الزورق نتيجة اصطدامه بإحدى الصخور مما أدى إلى وقوع شرف الدين في النَّهر قبل أن يُجيب على هذا السؤال؛ لأنه هو أيضًا كان قد تركَ مجدافه أثناء حديثه مع المسافرين، ومع اختلالِ توازنِ الزورق وقعَ أغلبُ المسافرين في النهر، وكان هناك من تمسَّكَ بالزورق واستطاع البقاء على ظهره، ولكن التيارَ جرفهم أيضًا مع الزورق وهم مصابون بالذعرِ والهلع.

انجرف شرف الدين مع مياه النهر العاتية لبعض الوقت، وأصيب ظهره بعد اصطدامه بصخرة في النهر، فقفز "شوق" إلى النهر عندما رأى صاحبه يُقاوم المياه، وبعد صراعه مع التيار الجارف ومقاومته قوّة النهر استطاع في النهاية أن يُنقذ شرف الدين ويوصله إلى الضفة المقابلة، لقد ساعد شرف الدين وحمله على ظهره، وبدأ البحث عن مكان يلجأ إليه، وكان شرف الدين الذي انطوى على نفسه نتيجة الآلام التي كان يعانيها في ظهره يشعر بال ألم شديد وهو على صهوة شوق، ثم ما لبث أن ألقي بنفسه أرضاً بعد أن أوقف شوقاً، لقد ظن شرف الدين أن ظهره قد أصيب بكسور، وكان يجد صعوبة في الوقوف على قدميه، ويتتابه ألم شديد عند المشي، اقترب بصعوبة بالغة من أحد الينابيع ليشرب الماء، وفي الوقت الذي اتكأ فيه على سيفه وجثا ليشرب الماء من النبع رأى الآية الكريمة المنقوشة على السيف: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [سورة الطلاق: ٣/٦٥].

أعادت هذه الآية شرف الدين إلى وعيه في الوقت الذي كان فيه اليأس قد بدأ يُساوره نتيجة الحالة التي كان فيها، وحينها أدرك أنه لا يستطيع اللجوء إلا إلى الله، فتوجّه بالدعاء إلى ربه ليعفو

عنه وقال: ”نحن لم نثق بك، بل وثقنا بقوتنا وبعَدِنا ونَسِينَا
الذَّاتِ الإلهية التي كان علينا أن نثق بها، ربي!! إنَّكَ لم تنسنا
ولو للحظة واحدة، أسألك أن تعفو عن خطيئي وتصفح عني“.

كان شرف الدين يدعو ربّه ويطلب العفو من جهة وهو
يُكْفِكِف دموعه من جهة أخرى، وبعد أن انتهى من دُعائه
المُخلص لربّه شعر أن آلام ظهره قد خفّت، فأدى صلاة شكرٍ لله
تعالى امتطى بعدها جواده وتابع المسير.

وقبل الغروب بقليل بدأ شرف الدين يسمع صوت أذانٍ
صادر من مكانٍ قريب، وعندما اقترب أكثر من مصدر الصوت
وجد قلعةً حصينةً وكبيرةً كُتِبَتْ على بوابتها الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ

جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: ١٠٥/٥].



ليلة في القلعة

عندما دخل شرف الدين إلى القلعة تذكّر مجدداً ما جرى في النهر، فشعر بخُزْنٍ عميقٍ جرّاء ذلك، كان يعاتب نفسه لأنّه ترك مجدافه وكان عليه ألا يتركه حتّى وإن ترك الآخرون مجاديفهم، كان عليه أن يُتابع أداء عمله مهما حصل، ويتنظر التوفيق من الله، وكان عليه ألا يتوقّف عن التجديف أبداً حتى ولو كان توقّفه في سبيل تحذير رفاق دربه، ففي الوقت الذي أراد فيه تقديم النصّح لزملائه توقف عن استكمال المهمة المُوكلة إليه، وهو ما أدى إلى كارثة، لقد أنقذ نفسه بصعوبة بالغة، ولكن من يعلم ما الذي أصاب بقية رفاقه؟؟

انتهى المؤذن من رفع الأذان، وبدأ المُصلّون يجتمعون لأداء الصلاة، هرع السلطان شرف الدين إلى المسجد والتحق بجموع المصلين، وقد أدخل القرآن الكريم الذي تمت تلاوته بعد الصلاة السكينة والطمأنينة إلى قلبه، مكث شرف الدين

في المسجد لبعض الوقت بعد مغادرة المصلين، وتضرّع بالدعاء لربه، وقبل خروجه من المسجد التفت يمينًا ويسارًا فرأى بعضًا من أصدقاء دربه ممن كانوا معه على متن الزورق وهم يتوجّهون بالدعاء إلى الله، لم يكن هؤلاء المسافرون ممن تخلّوا عن مجاديفهم وجرفهم التيار مع الزورق، ففرح شرف الدين كثيرًا لرؤيتهم سالمين، وعندما اقترب منهم وجدهم أيضًا مصابين بجروحٍ مثله، وعلى الرغم من أنهم استطاعوا النجاة إلا أن البعض منهم وأثناء مصارعته مياه النهر أصيب بجروح في ظهره، والبعض أصيب بجروح في يديه أو في قدميه، والبعض الآخر انجرفت جياده مع التيارات العاتية، بينما خارت قوى عددٍ منهم حتى أضحووا غير قادرين على استكمال الرحلة، ولم يكن أيٌّ من المسافرين الذين سارعوا باللهو واللعب وتركوا مجاديفهم موجودًا في أنحاء المسجد.

قرر شرف الدين قضاء الليل في القلعة والبحث عن شخص يصِفُ لهم ما تبقى من الرحلة، وكان لديه شعورٌ بأن مسافةً قصيرةً كانت تفصله عن ساحة الحياة، ولكنه لم يكن يعلم أيُّ شيءٍ عن المصاعب التي تنتظره من الآن فصاعدًا، لأنه لم يكن قد حصل بعدُ على المعلومات المتعلقة بما تبقى من الرحلة، فكر شرف الدين في

تلك الليلة بساحة الحياة حتى غفّت عيناه، حيث قال بينه وبين نفسه بأنه سيتغلب على كل المخاطر التي ستواجهه وسيتجاوزها بكل حرص وعزيمة، فنام وهذه الأفكار تدور في خلدته.

وفي الصّباح استيقظ على صوت الأذان، فنهض فوراً وبعد أن توضأ ذهب إلى المسجد، وأدى الصلاة وبدأ يبحث عن شخص يُجيب عن أسئلته، التقى ببعض الأشخاص وشرح لهم الموضوع، ولكنهم كانوا جميعاً غرباء عن المنطقة، وفي النهاية قرّر أن يتناول طبقاً من الحساء ثم يتابع رحلته، اصطحب معه طعاماً وشراباً، وامتنطى صهوة شوق، واتّجه إلى بوابة القلعة استعداداً لمغادرة هذه القلعة المنيعة الآمنة، وعند البوابة قال له الحُرّاس:

- عليك الخروج من بوابةٍ أخرى وليس من البوابة التي دخلت منها، فشكرهم شرف الدين، وتوجّه إلى الجهة التي حدّدها له الحراس.

عندما كان شرف الدين على وشك مغادرة القلعة من تلك البوابة رأى أحد الحراس المُكلّفين بحراستها يمدّ سهماً ذهيباً باتجاهه، ف شكر شرف الدين الحارس، وأخذ منه السهم، ووضعه في كنانة السهام الموجودة على ظهره، وكان مكتوباً على السهم قول الله: ﴿فَاسْتَفِزْ كَمَا أَمَرْتَ﴾ [سورة هود: ١١٢/١١] وعبرة:

والدُّروس من أخطائه السابقة، وفي هذه الأثناء كان صوتٌ ضعيفٌ
جداً في داخله يقول له: لقد أصابك الغرور مجدداً، ولكن سعادة
شرف الدين التي كانت تزداد كلما تذكر نجاحاته تمنعه من سماع
ذلك الصوت الخافت الذي كان يجول في جنباته ومن الانتباه
لتحذيرات شوق له.



نحو نهاية الطريق

تابع شرف الدين طريقه لبعض الوقت وذهنه مشغول بهذه الأفكار، وعندما التفت يميناً ويساراً أدرك فوراً أنه مرّ من هذا المكان من قبل، ورجع إلى المكان نفسه وكأنّه يرسم دائرة في الهضبة التي يتواجد فيها، تابع شرف الدين سيره مجدداً ظناً منه أنه كان شارد الذهن، وبعد مضي بعض الوقت عادت تلك الأفكار لتشغل ذهنه، وكان يفكر بكل ما جرى معه من مجريات منذ بداية الرحلة، وكلما خطرت نجاحاته بباله كان يشعر بسعادة بالغة، وعندما انتبه إلى الطريق وجد نفسه قد عاد إلى المكان ذاته مجدداً ولم يكن يستطيع التقدّم، مع أنه فعل كلّ ما يلزم لاستكمال الرحلة ونفّذ كلّ الشروط، ولذلك كان يظنّ أن الله سيوفّقه في استكمال رحلته، ولكن لماذا يلف ويدور حول

المكان نفسه؟ من المُفترض أن يكون قد وصل إلى ساحة الحياة الآن، لماذا لم يوفِّقه الله تعالى في هذا الموضوع؟ ترى هل أخطأ في الأخذ بالأسباب؟

وبينما كان يُحاول استكمال رحلته والتخلُّص من هذا المكان الذي يذهب ويعود إليه ثانيةً، رأى تينًا ضخماً يقفُ أمامه، فسلك طريقًا مختلفًا وتسَلَّقَ قَمَّةَ إحدى التلال، ولكن هذا الطريق أيضًا وَضَعُهُ وَجْهًا لوجهٍ مع التينين، ولم يعد بإمكانه التراجع إلى الخلف إذ كان قد اقترب منه كثيرًا وهو شارد الذهن، كانت أنفاس التينين تُشبه حرارة الصحراء، والصفعة التي وجَّهها لشرف الدين بأحد أظافره كانت كافيةً لإسقاطه من على صهوة شوق، ولكن التينين لم يكتفِ بذلك، بل فتحَ فَمَهُ ونفخَ لهيبًا مخيفًا باتجاه شرف الدين الذي كان يُحاول الهروب منه.

أصيبَ شوقٌ بجروحٍ خطيرةٍ نتيجة إصابته بهذا اللهب، حيثُ احترق جزءٌ من ذيله وعُزْفُهُ، كما أن شرف الدين وَقَعَ أرضًا وهو يحاول الهرب والتخلُّص من اللهب وحماية عينيه بيديه، كان الألم الذي أصابه شديدًا ولكنه مع ذلك أَحَسَّ بأنَّ النارَ أصابت إحدى عينيه، فبدأ الخوف والرعب يسيطران عليه، وسرعان

ما استل سيفه من غمده، ظنًا منه أن التّين الضخم سيخاف من سيفه ويهرب، وفي حقيقة الأمر توقّف التّين للحظات حينما رأى السيف، ولكنه ما لبث أن شنّ هجومًا آخر، ودحرج شرف الدين من على قمة التّلة التي كان يقف عليها.

كان التّين يواصل ملاحقته لشرف الدين، بينما تضدّر من جوفه أصواتٌ تُشبه قَعَقَةَ الطاحونة، وضجيجًا كصوت جبل يخزّ وينكسر.

بدأ شرف الدين يظنّ أن نهايته قد اقتربت، وأنه سيتحوّل إلى حَفَنَةٍ من الرماد بعد احتراقه بلهبِ التّين، وبينما كان يتدحرج سقط منه سيفه، وفي محاولة هجومٍ أخيرةٍ منه أمسك بقوسه، ووضع فيه السهم الذي أعطاه إياه الحارس عند خروجه من القلعة، وهنا بدت أمامه الآية الكريمة ﴿فَاسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [سورة هود: ١١٢/١١] وهو يُلقم قوسه بالسهم، فصوّب شرف الدين سهمه، وأطلقه داخل فمِ التّين الذي كان يتّجه نحوه كالصاعقة، صارخًا بتلك الآية المكتوبة عليه.

وعندما دخل السهم في فمِ التّين اختفى اللهب من فمه وكأنه تجرّع بحيرة ماء، وتدحرج من أعلى التّلة باتجاه الوادي مُصدّرًا ضجيجًا كبيرًا، ثم اختفى عن الأنظار بعد ذلك، وأثناء

تدحرجه كانت الأرض تهتزُّ وكأنَّ زلزالاً قد وقع، وعاد شرف الدين وتسلق إلى قمة التلّة التي كان يقف عليها وهو لا يرى إلا بعينٍ واحدةٍ ووقف إلى جانب شوق، لقد واجه شرف الدين عدوًّا جديدًا في الوقت الذي كان يظنّ فيه أنه اقترب من ساحة الحياة، ولو لم ينقذه السهم الذهبي الذي أخذه من القلعة لكان قد احترق، كان يُفكر على الدوام بمعنى الآية المكتوبة على ذلك السهم، ويبحث عن الخطأ الذي ارتكبه، وعندما فهم خطأه قال في نفسه: ”إدّا، عليّ أن انتظر التوفيقَ من الله حتى ولو نفّذت كلّ ما طُلب مني، وعليّ أن أُحيل إليه كلّ شيءٍ، ولكنني ظننت أنه لا بدّ أن أصل إلى النتيجة حتمًا لأنني قمت بكل ما هو مطلوب مني فيما يخصّ الرحلة، لقد أخطأت ولم أكنّ مستقيمًا كما أمرت“.

سيطرت هذه المشاعر على نفس السلطان؛ فتنحى جانبًا، وبدأ يستغفر ربّه حتّى بلّلت الدموع المنهمرة من عينيه الأرض، لقد نفعت دموع الندم هذه عينه المصابة، فقد بكى شرف الدين لساعاتٍ دون أن يدرك، ولكنّه استطاع التخلص من هذه الحالة عندما لمسّه شوقٌ بأنفه، وعندما فرك شرف الدين عينيه لبعض الوقت، شعر بالسعادة إذ رأى شوقًا بحالةٍ جيّدةٍ، ولكن المفاجأة الكبيرة بالنسبة إليه كانت عندما وجد عينه التي انكوت بلهيب

التَّيْنِ تُبْصِرُ الثُّورَ مِنْ جَدِيدٍ، فَشَعَرَ بِسَعَادَةٍ كَسَعَادَةِ الْأَطْفَالِ،
وَأَحْسَّ شَرَفَ الدِّينِ مُجَدِّدًا بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْدَقَ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِهِ،
وَانْحَنَى بِجَسَدِهِ تَوَاضِعًا وَاحْتِرَامًا لِلَّهِ، نَعَمْ، كَانَ شَرَفَ الدِّينِ يَبْكِي
مِنَ الْفَرَحِ وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ يُحَسُّ بِخِيبةِ الْأَمَلِ وَالضَّيْقِ
لَوْقُوعِهِ فِي نَفْسِ أَخْطَائِهِ السَّابِقَةِ، وَتَسَاءَلَ كَمْ مِنَ الْأَخْطَاءِ
سَيَرْتَكِبُ، وَكَمْ مَرَّةً سَيَنْدَمُ وَيَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، وَهَلْ سَيُظَلُّ عَلَى هَذِهِ
الْحَالِ حَتَّى نِهَايَةِ الرِّحْلَةِ؟

أَمْضَى شَرَفَ الدِّينِ لَيْلَتُهُ تِلْكَ تَحْتَ شَجَرَةٍ فِي قَمَّةِ التَّلَّةِ
الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، وَأَدَّى صَلَوَاتِهِ هُنَاكَ وَمَا زَالَ التَّأَثُّرُ مُسَيَّرًا عَلَيْهِ
تَفَضُّحُهُ عَيْنَاهِ الدَّامِعَتَانِ، أَمْضَى اللَّيْلَةَ كُلَّهَا تَقْرِيًّا فِي الْعِبَادَةِ دُونَ
أَنْ تَغْفُو عَيْنَاهُ، وَعِنْدَمَا نَهَضَ لِأَدَاءِ صَلَاةِ الْفَجْرِ سَمِعَ صَوْتَ
أَذَانٍ قَادِمًا مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: ”إِذَا، هُنَاكَ جَامِعٌ فِي هَذِهِ
الْمَنْطِقَةِ“، وَرَغِبَ شَرَفَ الدِّينِ بِأَدَاءِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، فَامْتَطَى
صَهْوَةً شَوْقٍ، وَاتَّجَهَ مُسْرِعًا فِي الْجِهَةِ الَّتِي يَصْدُرُ مِنْهَا صَوْتُ
الْأَذَانِ، وَقَدْ صَدَّقَ ظَنَّهُ فَقَدْ وَجَدَ مَسْجِدًا جَمِيلًا جَدًّا خَلْفَ التَّلَّةِ
الَّتِي أَمْضَى عَلَيْهَا لَيْلَتِهِ، شَعَرَ شَرَفَ الدِّينِ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ لِأَنَّهُ
اسْتَطَاعَ اللَّحَاقَ بِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَى مِنْ أَدَاءِ الصَّلَاةِ
بَدَأَ التَّفَكِيرَ مُجَدِّدًا بِمَا صَادَفَهُ مِنْ مَجْرِيَّاتٍ وَأَحْدَاثٍ مِنْذُ بَدَايَةِ

الرحلة، لم يعد شرف الدين يرغب بارتكاب أيّة أخطاء أخرى،
نظر إلى شوق الذي كان يأكل العشب جانبًا، وقال له:
- سيكون النجاح حليف كل شخص إذا ما امتلك جوادًا
مثلك.

وما أن سمع شوق هذه الكلمات حتى نظر إلى شرف الدين،
وبدأ صهيّله يعلو وكأنّه يوافق على ما يقوله له صاحبه، ثم بدأ
يعدو سريعًا بـ "شرف الدين" الذي دنا منه، وامتطى صهوته.



ساحة الحياة

وصلَ شرف الدين إلى تَلَّةٍ أخرى وهو يسابق الريح
ممتطياً صهوة شوق، ووقف فوق قَمَّةِ التَلَّةِ ونظر إلى الوادي
الشاسع الممتدّ خلف تلك التَلَّةِ، كان الوادي بالغَ الجمال فيه
من الروائع ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت، أطال شرف الدين النظر
في الوادي وكأنَّه سُحِرَ بما رآه، ربما كان هذا الوادي "ساحة
الحياة" التي تحدّث عنها السلطان علاء الدين، فقد كانت الأماكن
وكلُّ الأشياء رائعة الجمال! لو أنَّ الأشجار يُشبه الزمرد الأخضر،
ومياه الأنهار التي تسيل فيما بين الأشجار بَرّاقَةً للغاية، والطيور
تُعزِّدُ بنشوة وسعادةٍ، وروائحُ الأزهار تُنَعِّشُ الأرواح، والفراشات
الملونة بشتَّى الألوان تطير هنا وهناك... إنَّ هذا الوادي يحتوي
كافة أنواع الثَّمار وفيه من الجمال ما يَسحر النَّاظرين، وخلف
الوادي يقع جبلٌ تَمَلَأُ الثلوجُ قِمَمَه، حيث يَهْبُ منها نسيمٌ عليل،
وتنبع منها جداول المياه الرُّقراقَّة والشلالات في أعالي تلك

الجداول، باختصار كان هذا الوادي مكانًا يحتوي من الجمال ما يكفي لأن ينسى الإنسان همومَه مهما بلغت.

بعد أن شاهد شرف الدين ما حوله بإعجاب نزل من التلة إلى الوادي، وكانت الطُّرق المرصعة بالحجارة تتخلَّل مزارع الفواكه، فسلك شرف الدين هذه الطرق الحجرية متابعًا رحلته في الوادي، وفي النهاية أوصله هذا الطريق الحجريّ إلى خارج الوادي، وبينما كان شرف الدين يسأل نفسه فيما إذا كان هناك وادٍ آخر أم لا؟ إذ رأى ساحةً منيرةً وكأن ضوء القمر يشعُّ من وسطها، فأصابه منظرها بالذهول فتقدّم بحماسٍ حتى وصل إلى وسطها، كان قلبه يخفق بسرعةٍ كبيرة، وكان الضوء يُشعّ من تحت المباني الموجودة في الساحة، وكانت الأراضي مزينةً بالزمرّد والياقوت والماس، وعندما همّ شرف الدين ليصيح سائلًا: "هل من أحدٍ هنا؟" سَمِع صوتًا يقول له:

- أهلاً وسهلاً بك.

فأجاب شرف الدين متفاجئًا:

- أهلاً وسهلاً بكم.

كان صاحب ذلك الصوت رجلاً في أواسط العمر، وكان وجهه مليئاً بتعابير تبعث الطمأنينة والأمان في النفوس، كان

يسبح بسُبحه في يده بينما يتمتم بشفتيه كلامًا لم يتبينه شرف الدين، اقترب هذا الرجل الذي يُشعّ النور من وجهه بسرعة وكأنّه يطير، وكان يشبه السلطان علاء الدين كثيرًا، كان ينظر إلى شرف الدين وكأنّه يعرفه منذ زمنٍ بعيد، ترجل السلطان شرف الدين من على جواده فورًا، واقترب بخطى سريعة من الرجل، فُبهِت من شدة دهشته وتغيرت ملامح وجهه! نعم، نعم! إن هذا الرجل هو نفسه السلطان علاء الدين.

ابتسم مرحبًا، وقال:

- أهلاً وسهلاً بك يا سلطانُ شرف الدين.

أجاب شرف الدين:

- أهلاً وسهلاً بك يا سلطانُ علاء الدين، لم أكن أتوقع

رؤيتك هنا، لقد فاجأتني!

السلطان علاء الدين:

- أعلمُ ذلك، قل لي: كيف كانت رحلتك؟

السلطان شرف الدين:

- لقد وصلتُ سالمًا غانمًا والحمد لله.

السلطان علاء الدين:

- حسنًا، وهل معك مفتاحُ الكنز الذي ستبحث عنه هنا؟

السلطان شرف الدين:

- لا، عن أيّ مفتاحٍ تتحدّث يا سلطان علاء الدين؟
تفاجأ شرف الدين كثيرًا لهذا السؤال، وظنّ أنه كان عليه اصطحاب مفتاح عند بدء مشواره إلى هنا، وحزن لأنه لم يجلب معه هذا المفتاح، وعندما رأى السلطان علاء الدين صاحبه على هذه الحالة ابتسم.

السلطان علاء الدين:

- لا عليك أخي شرف الدين، إن المفتاح الذي أتحدّث عنه هو الرحلة نفسها التي قطعَها أنت.

السلطان شرف الدين:

- وكيف ذلك يا سلطان علاء الدين؟

السلطان علاء الدين:

- سأقول لك كيف، وما عليك إلا التفكير: إذا أراد الإنسان أن يفعل شيئًا ما، وجب عليه أولاً أن يعقد النية على ذلك، وبعد ذلك عليه أن يحرص على فعل ذلك الشيء، وعليه أيضًا أن يتشاور مع الغير، وأن يصون الوحدة والتعاون فيما بينه وبينهم.
كان السلطان شرف الدين يقف مُطأطئًا رأسه وهو يستمع إلى السلطان علاء الدين، يهزُّ رأسه موافقًا بعد كلّ جملةٍ يقولها

السلطان علاء الدين مؤكداً بذلك ما يقوله، وهنا رفع رأسه، ونظر إلى السلطان علاء الدين، وقال له:

- يجب ألا تتأثر من إهمال الآخرين، ويجب أن تعمل في سبيل رضا الله وحده، وتنتظر النتيجة من لدنه فقط.

أسعدَ هذا الكلام السلطان علاء الدين كثيراً.

السلطان علاء الدين:

- نعم، لقد أصبتَ عينَ الحقيقة، من الواضح أنك وجدت المفتاح أخي شرف الدين.

السلطان شرف الدين:

- حسناً، وماذا بعد الآن؟

السلطان علاء الدين:

- والأمر بعد ذلك يقع على عاتقك أولاً، ثم على المسؤولين الآخرين في دولتك وشعبك، في البداية ستواجهك عقباتٌ عديدةٌ لثنجيك عن الطريق الذي ستسير فيه، وما عليك فعله حينها هو ألا تفقد الأمل أبداً، وأن تؤدّي أعمالك بحرصٍ كبيرٍ وأن تكون مخلصاً في طلب نتيجة عملك من المولى .

السلطان شرف الدين:

- لقد فهمتُ الآن ما الذي كنتَ تحاول أن تبينّه لي، ولماذا

أردتني أن أخرج في هذه الرحلة، لقد فهمتُ أن الحياة عبارة عن رحلة يقوم بها الإنسان إلى ساحة الحياة.

السلطان علاء الدين -مبتسمًا ومشيرًا إلى طريق موجود أمامهما:-

- هيا، أسلك هذا الطريق وعُدْ إلى بلدك، وباشر بما كنت تريدُ تصحيحه وتقويمه، ولا تنس أن تبدأ بنفسك أولاً.

احتضنَ شرف الدين السلطان علاء الدين طويلاً وهو يشكره، وبعدها امتطى صهوة شوق، وقبل أن يتحرك ودَّعه قائلاً:

- أستودعك الله

قال له السلطان علاء الدين:

- إياك يا أخي أن تُهمل شيئاً أو أن تتراخى عن القيام بعمل ما! وإياك أن تُصابَ بالغرور بسبب النجاحات التي ستحققها! اذهب يا أخي وكان الله في عونك.



عودة السُلطان إلى بلاده

سلك السلطانُ شرف الدين الطريق الذي أشار إليه السلطانُ علاء الدين، فوصل إلى بلاده في غُضُون يومين، ولكن شَرَف الدين أَحَسَّ وكأنَّه قطع هذه الطريقَ في ساعتين فقط، لأنَّه كان قد اشتاق إلى بلاده كثيرًا أثناء غيابه عنها، يتوجَّب على شرف الدين الآن أن يفعلَ شيئًا من أجل بلده وأن يُنهي الحالة السيِّئة السائدة فيه، كان بإمكانه أن يُؤَيِّس بلدًا جديدًا تمامًا بالدروس والعبر التي استقاها من هذه الرحلة، ويبدأ كلَّ شيءٍ من جديد.

لقد مضى وقتٌ طويلٌ على مُغادرة السلطان شرف الدين للمملكة الزرقاء، وكان وزراؤه وشعبه قد فقدوا الأمل من عودته إلى البلاد، فقد انتظروا عودته طويلاً ودَعَوْا الله كثيرًا من أجل عودته سالمًا، ولكنهم لمَّا لم يصلهم أيُّ خبرٍ عن السلطان شرف

الدين اعتادوا على غيابه، وكانت تغمرهم مشاعرُ الحزن بسبب طول فراقه لهم.

وعندما وصل السلطان شرف الدين ممتطيًا صهوة شوق قُبيل حلول إحدى الأمسيات، شعر جميع أفراد الشعب بفرح عارم، ووصل شرف الدين إلى قصره وهو مُحاطٌ بجموع المحبين من أفراد شعبه، أحسَّ السلطان الذي اشتاق لبلده كثيرًا بمشاعرٍ جميلةٍ للغاية إثر هذا الاستقبال الحافل، وجمع وزراءه دون أي تأخير، وبدأ مسيرة التغيير بتغييره اسمَ المملكة، وأراد أن يُطلق على المملكة الجديدة التي سيؤسّسها اسمَ مملكة الحياة، ووزع المهام فورًا على وزرائه، كلّف شرف الدين أحدَ وزرائه بمهمّة تحسين الوضع في مجالي الزراعة والصناعة في البلاد، ووزيرًا آخرَ بالعمل على تطوير المعدات العسكرية في الجيش، ووزيرين آخرين بمتابعة الأعمال والتطورات العلمية، ووزيرًا بمتابعة الشؤون التربوية.

وبعد مرور مدّة قصيرة من الزمن توافد كل من يهتم بالعلوم من داخل البلاد وخارجها إلى العاصمة، ووضعوا الخطط المتعلقة بالمدارس والجامعات المُزمع افتتاحها، وتمّ تشييد الكثير من الفنادق والحمامات والجسور في البلاد، وتخفيضُ

أعداد العاطلين عن العمل والعاجزين والمتسولين بعد خلق
فُرص العمل الجديدة، وتم توجيه الدعوة للأغنياء لدفع زكاة
أموالهم، وللعلماء لدفع زكاة علمهم.

وقبل أن تنقضي خمس سنوات على الرحلة التي قام بها
شرف الدين إلى ساحة الحياة، كانت البلاد قد شهدت تغيرًا
وتطورًا ملموسًا، وأصبحت مملكة السلطان شرف الدين مثل
مملكة السلطان علاء الدين تمامًا، كانت كل هذه الأشياء الجميلة
التي تدور في البلاد تُفرح شرف الدين، ولكن أشياء أخرى
كانت لا تزال تشغل باله وتؤرقه، حيث كان يمشي شارد الذهن
في أغلب الأوقات، ولم يكن راضيًا عن مستوى التطور الذي
تشهده بلاده، فكان باله مشغولًا على الدوام بالأشياء التي
لم تُنجز بعد، وكان يعتقد في نفسه بعدم كفاية التطور الذي
تحقق في مقابل الجهد الذي بُذل، وكان يؤمن بوجوب أن يكونوا
الأفضل في كل المجالات، ولأجل ذلك كانوا يتناولون بشكل
مكثف الأعمال التي يتم إنجازها، ويزيلون العقبات التي تواجههم
بشكل دائم، ويتابعون تقدّمهم في أعمالهم، وكان المسؤولون
في البلاد، وفي مقدمتهم السلطان شرف الدين يعيشون حياة مليئة
بالجد والعمل، بيد أن نقصًا ما كان في إحدى الأمور، وكان

عليهم أن يتخذوا إجراءً جديداً لتذليل العقبات التي تواجههم، وبناءً عليه قرروا إعادة النظر مجدداً بكافة الأعمال.

ومرّت سنةٌ أخرى، لكنّ الأعمال التي يتمّ إنجازها في البلاد لم تكن أيضاً في المستوى الذي يرغب به شرف الدين، كانوا ينفذون كلّ ما هو مطلوبٌ منهم، ويُعيّنون الرجل المناسب في المكان المناسب، ويعكفون على العمل ليلَ نهار، ومع ذلك لم يستطيعوا الوصول إلى المستوى الذي كانوا يطمحون إليه، وكان شرف الدين يحاسب نفسه ومن حوله باستمرارٍ لتجاوزِ هذا الوضع، ويُعامل المحيطين به وكأنّهم مُقصرّون في أعمالهم، حتى إنّهم كانوا في بعض الأحيان يستأثرون من تصرفاته هذه، ولكن لماذا لم تكن نجاحاتهم بالمستوى المطلوب على الرغم من عملهم الدؤوب؟ أصبح هذا الوضع يُورّق ليلي شرف الدين، ولم يجد طريقة يتخلّص فيها من الأفكار التي كانت تدور في رأسه، وفي إحدى الليالي رأى مناماً.



الحلم الذي جاء بالحل

رأى شرف الدين في المنام أنه ذاهبٌ إلى ساحة الحياة، وكان هذا الحلم يُشبه حدثاً عاشه من قبل، حيث لَفَّ حينها مراتٍ عديدة حول مكان واحد وفي النهاية واجه تَيْنًا، لقد رأى في منامه نَفْسَ التينِ الذي واجهه وهو في طريقه إلى ساحة الحياة، والذي كاد يُحرقه ويحوّله إلى رماد، كان التين قد ضربه بكفه، وأوقعه عن ظهر شوقٍ، ودحرجه إلى أسفل التلة، وحينها بدأ شوق يحترق بِكُرّةٍ لهبٍ عظيمةٍ نفخها التين من فمه، وكان شرف الدين الذي فقد إحدى عينيه نتيجة الضربة التي وجهها له التينُ يتدحرج دون توقّف ولكنه لم يكن يعرف ما هو المرتفع الذي تدحرج منه، فظلّ يتدحرجُ حتى نهاية الحلم، وكان يسقط دون أن يصل إلى مكان يستقرّ فيه.

وحينما استيقظ لم يستطع تحديد درجة خوفه، ولم يعلم أيّ الخوفين أكبر: هل الخوف الذي اعتراه في الحقيقة، أم الخوف الذي اعتراه في المنام؟ لقد تعرّق كثيراً وهو يرى هذا المنام، نهض من فراشه وعندما وجد أن موعد صلاة الفجر لم يَحِنْ بعدُ، قام بأداء صلاة التهجد ودعا ربه، ثم تلا آيات من القرآن الكريم حتى أذان الفجر، وعندما أُذِن للصلاة توضّأ وخرج من منزله قاصداً الجامع، كان وجهه مُصفرّاً للغاية، وشارد الذهن وكأنه لا يرى من حوله، وكان ذهنه منشغلاً تماماً بالمنام الذي رآه.

وبعد الانتهاء من الصلاة غادر جميع المصلّين الجامع، ولكن شرف الدين لم يَترَح مكانه، بل ظلّ يحدِّق في نقطةٍ ما وينظر إليها دون أن يَرفَّ له جفنٌ، كان كبير الوزراء سليمٌ قد انتبه لحالة السلطان شرف الدين فلم يغادر الجامع، وكان يُراقب السلطان شرف الدين وهو جالسٌ في المحفل المخصص لجلوس المؤذنين، واستمر الوضع على هذه الحال لبعض الوقت حتى استطاع شرف الدين العودة من سُروده، لم يرغب سليم في تركه لوحده؛ فاتجه نحوه، وسأله:

- مولاي! أراك بحالة غريبة، أتمنى من الله أن تكون بخير،

هلاً أخبرتني بما حدث معك يا مولاي؟

السلطان شرف الدين:

- نعم، إنني أعيش الآن في حالة غريبة كما قلت، لقد رأيت حُلُمًا عجيبًا، وفي حقيقة الأمر كان الحلم مشابهاً إلى حد كبير لحادثة كنت قد عَشْتُها سابقاً.

سليم:

- خيرًا يا مولاي، هل ترغب في أن نسأل كبير المعبرين عن تفسير هذا الحلم؟

السلطان شرف الدين:

- حسنًا أيها الوزير العزيز، لأنني إن لم أسأل المعبر فسأظل أفكر بالمنام دون أن أجد له أي تفسير، هيا بنا نذهب.

وعندما وصلوا إلى المعبر تحدّث شرف الدين عن المنام الذي رآه، وعن الحادثة التي عاشها عندما كان ذاهبًا إلى ساحة الحياة، وفي هذه الأثناء استمع سليم الذي أبى أن يذهب إلى ساحة الحياة، إلى حديث شرف الدين باهتمام بالغ، ولمّا انتهى شرف الدين من حديثه قال له المعبر:

- يا بني! إن ساحة الحياة ليست مكانًا يصلُ إليه كل من يرغب في الذهاب إليه، إن كل حادثة عَشَتْها لها حكمة ما، فُل لي كيف استطعت التخلص من التنين الذي صادفته أثناء رحلتك؟

السلطان شرف الدين:

- في اللحظة التي كان سيُحرقني فيها رميته بسهم داخل فمه،
وما أن دخل السهم في فمه حتّى تدحرج إلى الوادي الموجود
في أسفل التلّة.

المعبر:

- حسنًا، هل لك أن تحدّثني عن ذلك السهم الذي خلّصك
من ذلك التّنين الضّخم؟

السلطان شرف الدين:

- السهم؟ كان منقوش عليه الآية الكريمة ﴿فَاسْتَغْفِرْ كَمَا أَمَرْتَ﴾
[سورة هود: ١١/١١٢]، وبالطبع فإني فهمتُ خطئي بعد هذه الحادثة
وثبّتُ إلى ربي واستغفرته وسألته العفو، إنني أتذكر ذلك جيّدًا
لأنني حينها كنتُ أظنّ أن الله يجب أن يُنقّذ كلّ طلباتي بمجرد
تنفيذي ما هو مطلوبٌ مني، أي أنني كنتُ أَدْخُلُ بشؤون ربي
بدلًا من انتظارِي التوفيق منه.

المعبر:

- يا مولاي! إن هذا المنام ليس منامًا عاديًا، وأظن أنّك
الآن ترتكبُ نفس الخطأ الذي ارتكبته أثناء رحلتك، أنت
لم تستطع التغلّب على التّنين في منامك، يبدو أنك تتصرّف

على خلاف الآية الكريمة المنقوشة على السهم الذي هزَمَ التَّيْنِ،
ما رأيك بهذا الكلام؟

السلطان شرف الدين وهو مطأطئُ رأسه خجلاً:

- الحق معك في كلِّ ما قلته، إذا لقد تدخّلتُ في شؤون
ربِّي مجدِّداً دون أن أدري، لقد أتعبتُ نفسي وأتعبتُ شعبي
عندما ظننتُ أن نتائج أعمالنا يجب أن تكون أفضل من تلك
التي نُحقِّقُها، لأن واجبنا أن نُبدي الحرص والقيام بالعمل فقط،
أليس كذلك؟ وانتظار النتيجة من ربِّ العالمين، ولكن كيف
سنستطيع التخلُّص من هذا الوضع؟
المعبر:

- لقد تحدّثتَ عن الوصفة بنفسك أيّها السلطان! كلِّ
ما عليك القيام به هو أن تعمل بإخلاصٍ وتنتظر التوفيق من ربِّ
العالمين، وألاً تتصرّف وكأنّك ستحصل حتماً على كلّ شيء
بمجرّد قيامك بعمل ما، عليك أن تعمل من أجل الحصول على
كل شيء، ولكن عندما لا يتحقّق لك ذلك يجب أن لا تبدي أيّ
استياءٍ حياله، ويجب علينا أن لا ننسى أبداً أنّ الخير فيما يختاره
الله دائماً.

وهكذا تعلّم شرف الدين درسًا ثانيًا من الآية الكريمة نفسها
لأنّه كان قد ارتكب الخطأ نفسه، نزلت دموع شرف الدين خجلًا
من ربّ العالمين، وكان يرغب في الانفراد بنفسه، فعاد إلى القصر
ودخل غرفته بهدوء.



عصر الراحة

مكث شرف الدين في غرفته طويلاً، وطلب من ربّه العفو بعد أن أجرى أكبر محاسبة لنفسه طيلة حياته؛ لأنه كان قد ارتكب نفس الخطأ مجدّداً، ولكنه كان عازماً هذه المرّة على أن يقوم بما هو مطلوب منه فقط، وألا يتدخل فيما عدا ذلك وألا يتشوّف لأي شيء، فالقلوب بيد الله، وكان على شرف الدين أن لا ينسى هذا الأمر أبداً.

كان شرف الدين قد استخلص درساً آخر من هذه الحادثة، وأبدى حرصاً وإخلاصاً كبيرين بعد ذلك، لأنه أدرك أنه لا يجوز للإنسان أن يطلب شيئاً من الله جبراً مقابل قيامه بما هو مطلوب منه، لقد ترسخت هذه الفكرة في نفس شرف الدين، ولذلك بدأ ينجز ما هو مطلوب منه من أعمال على أكمل وجه، ويدعو الله

سبحانه وتعالى دائماً أن يحصل على أفضل نتيجة لعمله، كما كان شَغْبُهُ في حالةٍ من الاتحاد والتضامن والتكاتف.

ومضى عشرون عاماً وهم على هذه الحالة، وأصبحت بلاد السلطان شرف الدين أغنى من المملكة الخضراء، كما أنهم كانوا قد غيروا اسم مملكتهم إلى "مملكة الحياة"، ولم يعد هناك شيء اسمه الفقر في هذه البلاد التي باتت تعجّ بأحدث المشافي العصريّة، وكان أصحاب الأمراض المستعصية يأتون إليها، وقد شُيِّدت فيها أحدث وأفضل المدارس، وأصبح العلماء يتنافسون على العمل فيها، كانت سعادة شرف الدين غامرةً وهو يرى مملكته قد أصبحت نموذجاً يسعى الجميع للتشبه به ولتقليده.

مرَّ الزَّمن سريعاً، وشرف الدين منشغلٌ بشؤون بلاده طوال سنين عديدة لم يفكّر فيها في نفسه، ولكنه بدأ التفكير في الزواج بعد إصرار وزرائه، وبعد بحثٍ وجدَ شرف الدين شريكة حياته، وأقام عُرساً متواضعاً أصبح السلطان بعده زوجاً سعيداً تُعينه زوجته على مهامه وتُشاركه همومه، وبعد مرور عدة أعوامٍ رُزق شرف الدين منها بولدين وبنتين، لقد كانت سعادته لا تُوصف، وكان يعملُ مع زوجته كلّ ما يمكنهما من أجل تربية الأطفال تربيةً جيّدة، وكان السلطان شرف الدين ممتناً للغاية لأن ابنه كان

يملك شخصية قيادية منذ ولادته، وكانت بتأه أنموذجاً للعفة والجمال.

كَبُرَ ابنُ السُّلطان، وأضحى والده رجلاً كبير السنّ، وكان وليّ العهد الشاب النّشيط يعتقد أنه بإمكانه أن يجعل مملكة الحياة متقدمة ومتطورة أكثر فأكثر ووجد تأييداً من المجلس أيضاً لفكرته هذه، فسُلّمت مقاليد الحكم للسُّلطان الشاب، ولكن التّطور الذي كانت تشهده مملكة الحياة جعل السُّلطان الشاب يغترّ بما يرى فقد أذهل الغنى والأبهة الموجودان في مملكة الحياة عيون جميع من زارها.

كان السُّلطان الشاب بعكس والده السُّلطان شرف الدين، لا يبذل جهداً لتطوير البلاد وزيادة رخائها، فقد اكتفى بما وصل إليه والده، ولم يُبدِ حرصاً كبيراً لتعزيز تطوّر مملكته، بل كان حرصه مُنصبّاً في أغلب الأحيان على الحفاظ على النظام الذي أسّسه والده وضمان استمراريّته، ومع مرور السنين على هذه الحالة عمّ الرخاء والغنى كافة أنحاء البلاد.

اعتاد الجميع بسرعة على هذا الوضع المريح السائد في البلاد، حيث كان أغلبُ الناس ينعمُ بهذه الراحة كما تنعم الشجرة بالأرض الطيبة، بالطبع تسبّب طراز الحياة هذا في بعض

السليبيات، فالناس بدؤوا يبحثون عن أقصر الطرق التي تُوصلهم إلى الغنى، ولم يعودوا يعملون كما كانوا يعملون في السابق، فأصبحت الورش والمحالّ تفتح أبوابها في أوقات متأخرة من النهار، وتغلق في ساعات أبكر، وأصبح لدى الناس ثقة كبيرة بمدى غناهم وراحتهم ورفاهيتهم.

ونتيجةً لهذا الوضع افتُتحت أماكنٌ لهو كثيرةٌ في مملكة الحياة التي يشار إليها بالبنان كأحد أشهر مراكز العلم، كما ازدادت أعداد الأشخاص الذين يشربون الخمر ويلعبون الميسر زيادة ملحوظة، وكان هناك من يذهب إلى بعض الدول غير المسلمة من أجل لعب الميسر، وكانت حالة الاتحاد والتضامن والتكافل بين أفراد الشعب تتدهور يوماً بعد يوم.

امتلأت البيوت بالخدم، وكان البَذخ والإسراف يزداد مع مرور الأيام، وكانت الموائد عامرةً بخميس أو ستّ وجباتٍ يومياً، واجتمعت النسوة فيما بينهنّ كثيراً من أجل القيل والقال، لا همّ لديهنّ في هذه المجالس سوى بثّ الشائعات والغيبة والنميمة، ليس لهنّ من اهتمامات سوى تتبّع ثروات بعضهنّ البعض وما اشتريّن وما اقتنينّ، وللأسف أصبحت علاقات الناس محكومةً بالمصالح، ولأسبابٍ مجهولةٍ كان أغلب الناس يقارنون

أنفسهم بمن هم أعلى منهم مرتبة، حتى إن البعض منهم ونتيجة ضعفه أمام هذه المشاعر بدأ بالسرقة على الرغم من أن أوضاعهم المادية كانت جيّدة، ممّا أدى إلى ازدياد أعداد المساجين إلى حدّ كبير، وأصبح اللصوص يحتلّون المرتبة الأولى من حيث المعتقلين، أما المرتبة الثانية فقد احتلّها الذين ارتكبوا منكرات بسبب السُّكر، فقتلوا الناس، وانفصلوا عن عائلاتهم، وارتكبوا جرائم منافية للأخلاق.

وأدّت حالة الإهمال التي ازدادت في البلاد إلى وقوع الكارثة الكبرى، فبنية الإنسان التي خلقها الباري ﷻ بشكل متناسب فيه مع الحركة والعمل، تكاد تُفني نفسها بنفسها عندما تبقى عاطلة عن العمل، وبذلك أصبحت أكثر البلاد تطوُّراً في عصرها تشبه مريضاً مصاباً بالسرطان نتيجة الإهمال الذي أصابها، مع العلم أنهم كانوا يعملون سابقاً خمس عشرة أو ست عشرة ساعة يومياً، ولم يكن هناك أحد يشكو من تلك الحالة، فالناس مهما تعبوا حينها كانوا ينامون في بيوتهم وهم مرتاحون، وكان الجميع يحبّون ويحترمون بعضهم البعض، ولم يكن أحد منهم يعتدي على حق الآخر، إن أولئك الناس لم يشربوا الخمر، ولم يلعبوا الميسر، ولم يرتكبوا جرائم السرقة وغيرها من الأفعال اللاأخلاقية عندما

كانت المملكة فقيرة، فما الذي حصل لهم يا ترى لكي يفعلوا كل هذه الأمور وقد أصبحت المملكة لا ينقصها أي شيء؟
ومن جهة أخرى، لم تكن أخبار البلاد والحالة التي وصلت إليها تصل إلى السلطان الشاب الذي لم يكن يغادر قصره لقناعته بأن بلاده من أكثر بلدان العالم تقدماً وتطوراً، حيث كان السلطان الشاب مشغولاً بالعناية بالحديقة والورود، ولم ينتبه لما يجري من حوله إلى أن وصلت الآفات إلى العاملين في القصر ووقعوا هم أيضاً في مستنقع الطمع، فأصبح كل واحد منهم مهووساً بالمال يرغب بأن يصبح غنياً في ليلة وضحاها دون أن يعمل أو يتعب.

كان بعض هؤلاء يسرق من خزينة المملكة حتى أصبحت الخزينة خاوية من أي مالٍ، والأسوأ من ذلك أن هؤلاء كانوا يفعلون كل ذلك بقيادة الوزراء المكلفين برعاية مصالح وأحوال المملكة، كما أن السلطان لم يكن يتابع مجالس العلم، وكان يكتفي بقراءة التقارير المقدمة إليه، لأنه كان يعتقد أنه بقراءة تلك التقارير يقوم بأداء عمل كبير، وكان الوزراء يتابعون كل شيء كما يحلو لهم أن يتابعوه، وكانت الأمور تجري على هذا المنوال دون أية منغصات، فقد كان السلطان الشاب الذي لم يعلم بما يحدث،

يعيشُ حالةً من السعادة الزائفة وهو يظنُّ أنه أنشأ لنفسه ولبلده نظامًا في منتهى الدقة.

وفي أحد الأيام التي كان فيها السلطان الشاب يعتني بزهوره، أتى إليه أحد الوزراء من أصحاب الضمائر الحيّة، وطلب مقابلته؛ فقد ازدادت حالة الفوضى في البلاد ووصلت إلى درجة تصعب معها السيطرة على المملكة.

السلطان مستغربًا طلب الوزير في مقابلته:

- خيرًا إن شاء الله أيها الوزير؟ ما الذي تودّ قوله؟ وما هو هذا الأمر العاجل الذي جعلك لا تنتظر موعد الاجتماع؟
الوزير:

- مولاي! الجميع يتحدّث عن غنى بلادنا، ولكن أودّ أن أحدثكم في بعض الأمور السيّئة، لأنني لا أعلم ما الذي سيجري لمملكيتنا إذا لم نجد حلولاً لهذه الأمور.
السلطان:

- هل أنت على دراية بما تقوله أيها الوزير؟ ما هذه الأمور السيّئة التي يمكن أن تحدث في مملكة كهذه لا يوجد لها نظير في العالم؟ من ذا الذي يستطيع النيل من مملكة الحياة، وكيف؟
أظنُّ أنك مخطئ.

الوزير:

- مولاي! سأحدثكم عن كلّ شيء، إذا ما استمرت البلاد على هذه الحال فإننا سنهدم دولتنا بأيدينا دون أن يتدخل الخارج في ذلك.

السلطان وهو لم يدرك بعد مدى خطورة الموقف:
- لقد أفسدت نهاري، قل لي ما هي هذه الأمور السيئة، لقد حملت إليّ هذا الخبر التّعيس وأنا أقف إلى جانب أحلى ورود الحديقة.

أخبر الوزير السلطان بكل الأمور السيئة التي تجري في البلاد، وقال له بأن الوزير المكلف بإخبار السلطان بهذه الأمور أصبح مشغولاً هو الآخر - وللأسف - بسرقة البلاد، ولم يكن السلطان الشاب قد سمع بمثل هذه الأخبار السيئة من قبل، في البداية لم يكن يرغب بتصديق الوزير، لأنه كان يظنّ أن المملكة تكون على حافة الهاوية إذا كانت أقوال الوزير صحيحةً، ولكنه كان يثق بهذا الوزير، لأنه لم يعهده كاذباً قطّ، فلم يكن بإمكان السلطان التغاضي عما قيل، وكان عليه أن يفعل شيئاً.

السلطان بعد أن فكّر طويلاً:

- أريد منك أن تنظر في أحوال البلاد بشكل مُفصّل، وتبحث عن الأسباب التي أوصلتها إلى هذه الحال، وتُعدّ لي تقريرًا بذلك.
الوزير:

- كما تشاؤون يا مولاي.
السلطان:

- هل ما نحن فيه بسبب الغنى أيها الوزير؟
الوزير:

- ما ذنب الغنى يا مولاي؟ ذنبنا هو أننا استسلمنا للراحة والإهمال بعد أن تطوّرت مملكتنا وأصبحت غنية.
السلطان:

- كلامك صحيح أيها الوزير، كيف وقعتُ في مثل هذا الخطأ؟ مع أن والدي كان يقول دائما: ”الإنسان يحب الحركة والنشاط بطبيعته كالجدول، وعندما يتوقف عن الحركة والنشاط فستفوح رائحته كبركة ماء راكدة“.
الوزير:

- لا فُضّ فوك يا مولاي، كان السلطان شرف الدين يقول دائما: ”راحة الإنسان في عمله وفي سعيه“.

وبعد هذا اللقاء حدّد الوزيرُ كافّة الأمور التي لم تكن تسير على منوالها الصحيح في البلاد، وكان للسلطان الشاب وللوزير بعضُ الأفكار الخاصة بحلّ هذه المشاكل، ولكنهما فضّلا أن يستشيرَا أحد العارفين.



ليس للإنسان إلا ما سعى

قرر السلطان الشاب الذهاب إلى والده شرف الدين، السلطان السابق للبلاد وحكيم المملكة ليسأله عن كيفية إنقاذ البلاد مما هي فيه، كان السلطان شرف الدين في هذه الأثناء يعيش مع زوجته وأحفاده حياة سعيدة في بيت متواضع بعيد عن المدينة يقف وسط حديقة للفواكه، وكان العديد من الأشخاص يزورونه يوميًا للاستفادة من تجاربه والاستماع إلى أحاديثه، كما كان يلتقي أحيانًا بصديقه الحميم السلطان علاء الدين الذي لم يقطع الاتصال به قط، حيث كانا يتبادلان وجهات النظر والأفكار، ويتذكّران الأيام الماضية.

وعلى حين كان السلطان شرف الدين جالسًا مع زوجته في حديقة منزله في صباح أحد الأيام، رأى فرقة من الخيالة يتصاعد الغبار الكثيف من خلفها تسير باتجاهه، فأدرك أن القادم

إليه هو ابنه السلطان، كان السلطان شرفُ الدين يعلمُ بكل ما تشهده البلاد من صعوباتٍ في الآونة الأخيرة، وبالطبع كان يعرف الحلولَ التي يمكنها أن تُدَلِّلَ هذه الصعوبات، ولكنه كان يريد أن يعيشَ ابنُه هذه الصعوبات بنفسه ليأخذَ الدروسَ والعبر منها، ومن ثَمَّ لم يبادر بالتدخل في شؤون البلاد.

اتَّكَأ شرف الدين على شجرة الكرز الموجودة في الحديقة، وقال في نفسه: ”وأخيراً زالت الغشاوةُ من على عينيه“، ثم ابتسم، وقال لزوجته:

- جهزي المشروبات الباردة يا عزيزتي، لأنَّ سلطانَ أكثرِ البلدانِ تألَّقًا وأكثرها معاناةً في طريقه إلينا.

وبعد قليل وصل الابنُ إلى منزلِ والده، فاستقبله الوالد بابتسامةٍ وعامله بحميميةٍ أشعرتَ السلطان الشابَّ بالخجل الشديد، لأن والده كان قد أسس هذه المملكة، وسلَّمهُ إياها وهي في ذُرْوَةِ تقدُّمها وتطوُّرها، لقد كان والده رجلاً موهوباً ومخلصاً، ويملك تجارب لا تُعدُّ ولا تحصى، وعلى حين كان السلطان الشاب يملك نعمةَ التشاورِ الدائم مع والده، إلا أنه لم يكن يتذكَّر ذلك الوالد إلا قليلاً، وقد أحس بالحرَج الشديد لأنه كان يتذكَّر والده فقط عندما تشتدُّ عليه المحن.

أشار السلطان شرف الدين إليهم بالجلوس، ومن ثمَّ بدأ بالحديث.

السلطان شرف الدين:

- أهلاً وسهلاً بكم، كم أنا سعيد بلقاء سلطان أكبر دول العالم ووزيره، هل لي أن أعرف سبب زيارتكم؟
السلطان الشاب وهو خجل:

- أهلاً بك يا والدي، بدايةً أرجوك أن تعفو عني لأنني لم آت لزيارتك منذ مدّة طويلة، هل ستعفو عني يا والدي؟
السلطان شرف الدين:

- طبعاً يا بُني، لقد تراجعَت عن خطئك في النهاية، قل لي الآن: ما هو سبب زيارتكم لي؟
كان السلطان شرف الدين يعرف سبب الزيارة، ولكنه سأل هذا السؤال ليعرف مدى علم ابنه بأحوال البلاد.

السلطان الشاب:

- آه يا والدي، لا أدري ما الذي حلَّ بنا، أقودُ أعظم مملكة في العالم بنيناها بالعمل الدؤوب ليلَ نهار، ولكنني الآن أواجه مشاكل كبيرة جدًّا.

السلطان شرف الدين:

- وهذه المشاكل بدأت تؤرّق مضجعك منذ مدّة قصيرة،

لأنك علمت حديثاً بما يجري في بلادك، أليس كذلك؟

طأطأ السلطان الشاب رأسه خجلاً عندما سمع كلام والده،

ثم تحدّث بالتفصيل عما يجري في بلاده من سيّئات.

استمع السلطان شرف الدين إلى ابنه بكلّ اهتمام، وكان

يسأله بين الحين والآخر أسئلةً ليفهم الموضوع من كافّة جوانبه،

وقد عرفَ تماماً الوصفة التي ستنتقذ البلاد من مآسيها، بعد ذلك

تحدث السلطان المسنُّ عن الوضع الذي كان سائداً في بلاده

سابقاً، وعن الرحلة التي قام بها إلى ساحة الحياة، وعن التجارب

التي اكتسبها في هذه الرحلة، وتابع قائلاً:

اسمع يا بني، إن السبب الرئيس لكافة المصاعب والمشاكل

والوباء السائد في البلاد هو الميلُ إلى الراحة، فرغبة الناس

في الراحة تُكبّل أيديهم وتُسوقهم إلى الوقوع في الأخطاء،

مع أن الإنسان بطبعه مَجْبُولٌ على حُبِّ العمل والحركة، فالإنسان

يكتسب الراحة الحقيقية عندما يعمل ويسعى.

السلطان الشاب وعينه مغرورقتان بالدموع:

- كلامك صحيح يا والدي، لقد وصلنا إلى ما وصلنا إليه

عندما توقفنا عن العمل.

السلطان شرف الدين وهو راضٍ عن موقف ابنه:
- نعم، يجب أن لا نتوقّف عن العمل أبداً، ويجب أن تكون
الحقيقة الراسخة التي تقول ”وأن ليس للإنسان إلا ما سعى“،
دليلاً لنا يقوّد حياتنا.

وبعد ذلك ودّع السلطان شرف الدين ابنه إلى عاصمة أعظم
مملكة في ذلك العصر، فقد كان الداء الذي أصاب البلاد معروفاً،
وقد علّم السلطان جيّداً الدواء الذي سيُخلّص البلاد من هذا
الداء.

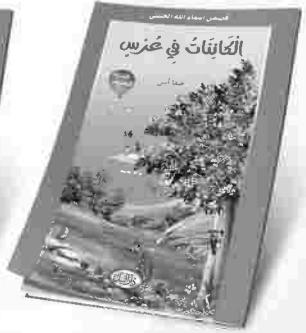
الدواء هو: الحركة والنشاط والعمل والسّعي دون توقف
ليل نهار...

سلسلة حكايات رسائل النور



مجموعة قصص مبسطة مختارة مما ورد في كليات رسائل النور للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، تهدف إلى تعليم أبنائنا وبناتنا الأعزاء قيمنا النبيلة كالإيمان بالله تعالى والأخلاق الفاضلة ورعاية حقوق الآخرين ومعاملة الناس معاملة حسنة.

كما ترمي هذه القصص الجميلة إلى تحسين سلوك أولادنا وتصرفاتهم. ونريد أن نذكر بأن أولادنا وبناتنا في حاجة ماسة إلى مثل هذه القصص التي تساعد على تنشئة جيل صالح نافع.



إن قصص أسماء الله الحسنى تعلّم أطفالنا بعضاً من أسماء الله الحسنى بأسلوب قصصي سهل يجري على ألسنة المخلوقات؛ من نباتات، وحيوانات، وأجرام سماوية، كما تهدف هذه القصص إلى تنشئة طفل يعرف ربه عز وجل بأسمائه الحسنى.